أ. د. عماد الدين خليل

من النافذة الإسلامية

مقالات

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



النافذة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

خليل ، عماد الدين .

من النافذة الإسلامية : مقالات / تأليف عماد الدين خليل . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤م .

٢١٦ ص ؛ ٢٠ سم .

تدمك ، ١٥٤ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الإسلام - مقالات ومحاضرات .

أ - العنوان .

٢١٤

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر



جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



النافذة الإسلامية

مقالات

تأليف

أ. د. عماد الدين خليل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْرِسُ ٱلمُحتَوَيَاتِ

* * *
* *
*

مُقَـدِّمَة

هذا هو الكتاب العاشر من كتب (المقالات) التي سبق وأن صدر منها المؤلفات التالية:

١ - آفاق قرآنية.

٢ - مؤشرات إسلامية في زمن السرعة.

٣ - في الرؤية الإسلامية.

٤ - مقالات إسلامية.

٥ - الرؤية الآن.

٦ - أولى ملاحم القرن.

٧ - مذكرات حول واقعة (١١) أيلول.

٨ - أمريكا مرة أخرى.

٩ - في دائرة الضوء.

إنها المتابعة المتواصلة، المركزة والموجزة، لما يجري في حياتنا عبر مناحيها كافة، والإضاءة الضرورية للظواهر التي تتطلَّب من حملة الأقلام تقديمها للقُرَّاء في زمن اختلطت فيه المفاهيم، وتداخل الأسود والأبيض، وعمَّت فتن كسواد الليل إذا أخرج أحد يده فيها لم يكد يراها.

والذين جرَّبوا التعامل مع هذا الدين وفكره، يعرفون

جيدًا كيف أنه ما من صغيرة ولا كبيرة، مما يتشكَّل في مجرى الحياة، أو يتمخَّض في ساحاتها، إلّا وللإسلام كلمة فيها. ويبقى على حملة الهم الفكري أن يتحرَّكوا بأقلامهم، يومًا بيوم وساعة بساعة؛ لرصد أكبر قدر ممكن من الظواهر والحالات، وتقديم رؤيتهم إزاءها، على ضوء دين مدهش في امتداده وشموليته وقدرته على التعامل مع كل الظواهر والحالات.

إننا نحيا زمن الاكتظاظ والاختزال والسرعة، وحصار المشاغل والهموم.. ومن أجل ذلك، قد يكون المقال الموجز في صفحتين أو ثلاث، فرصة مناسبة للقارئ؛ لتمكينه من مواصلة القراءة، شرط أن ينطوي المقال الواحد على جملة من الأفكار، وأن يتجاوز الترهّل والإنشائية التي لا تكاد تقدّم شيئًا ذا بال.

وإلى اللَّه وحده نتوجه بالأعمال ومنه وحده نستمد العون والتوفيق.

أ. د. عماد الدين خليل

الموصل

اغتيال الكلمة النظيفة

في معرض الكتاب الدولي في القاهرة، وعبر برنامج (حوار) أُجْرِي مع إحدى الروائيات العربيات، أعربتْ الروائية عن تذمّرها من منع عرض بعض الكتب بسبب معالجتها المكشوفة لقضايا الجنس.. مؤكدة أن الكتب الأكثر رواجًا في المعرض هي تلك التي تتحدث عن الجنس.

ويبدو أن الروائية مارست عملية خلط للأوراق، من حيث تدري أو لا تدري، فربطت بين القسر السياسي وبين منع انتشار الفاحشة والترويج لخطاب التفكيك والتدمير.

ذلك أن القسر السياسي الذي طالما عانت منه الأمة شيء، ومجابهة الفحش والتبذُّل شيء آخر تمامًا.. والخلط بينهما لا يصح بكل المعايير، وهو كمحاولة جمع برتقالة وتفاحتين لكي تخلص إلى الرقم (٣) فيما هو مستحيل حسابيًّا.

إنها محاولة ساذجة أو ماكرة؛ لتمرير الفاحشة في ساحة الخطاب الأدبي والذي يستهدف - إذا أحسنا الظن - الكسب المادي الصرف باعتبار أن كتب الأدب الفاحش هي من أكثر الكتب رواجًا.

ومعروف بداهة أن الحرية السياسية شيء، وحرية الفحش والفجور شيء آخر تمامًا، وإلا فهو الانفلات الذي سيميل

بالأمة إلى المزيد من التفكُّك والانسحاب إلى الوراء ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧].

ألا يكفي الروائية إياها، وكل عُشَّاق الأدب المكشوف، ما تقدِّمه الشاشة التلفازية، بما يتجاوز الكلمة السافلة، إلى الصورة السافلة، وهي أشد أذًى وفتكًا، وأكثر قدرة في الوقت نفسه على إشباع نزوات عشاق الرذيلة والمتخبطين في دهاليز الشبق واللذة المحرمة؟

ألا يكفي الروائية إياها، وكل الذين يسيرون على نهجها ويدعون دعوتها، هذا السيل المحرَّم من الأقراص الليزرية المتداولة علنًا وفي الخفاء، والتي تعرض لأشد الصور حيوانية وفحشًا في سلوك الإنسان، أتريد لهذا السرطان المنظور أن يغزو « الكلمة » ويدنسها هي الأخرى؟ ولحسن الحظ، فإن هنالك دائمًا، في موازين اللّه العادلة، ما يوقف الانحدار نحو الأسفل، ويحقق التوازن المنشود لصالح إنسانية الإنسان.. فإن إقبال جماهير القراء وروّاد المعارض على الكتب الإسلامية الهادفة، هو أكثر بكثير من إقبال جماهير البحث عن الكلمة السافلة.. ولقد أكدت جلّ المعارض التي أقيمت في هذا البلد العربي أو ذاك، صدق هذه الحقيقة التي تقف سدًّا منيعًا ضد طوفان التحلل والتفكك والفساد.

إذا وسعنا المنظور فإننا سنجد الحشمة تتجاوز بعدها الاجتماعي - الأخلاقي صوب دائرة أشمل وأبعد، إنها تحمل بُعدًا حضاريًّا، ليس فقط لكونها تحمي الطاقة البشرية من الهدر والتضييع، وتعين القدرة على الإنجاز وترفع وتائرها، وإنما لكونها تتجذر في البدايات الأولى، في لحظات الخلق الأولى للإنسان الذي كُرِّم على المخلوقات، وأريدَ له أن يكون سيدًا على العالمين.. أن يتعَّفف ويتطهَّر ويتغطَّى.

إن آدم عليه السلام وزوجه لحظة تناولهما ثمرة الشجرة المحرمة، عوقبا للحظات بالعُري، ولكنهما ما لبثا أن طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.. ويكفي أن نتابع الآيات (١٨ - ٢٨) من سورة الأعراف لكي يتأكَّد لنا أن الإنسان أريد له منذ اللحظات الأولى أن يستر عورته وأن يتزيَّـن!!

حيثما تلفتنا وجدنا الحشمة، ليس في حدودها الفقهية المنظمة فحسب وإنما على امتداد الحياة البشريـة، فـي كـل خـلايـاها ومـنحنياتها وممارساتها ودروبها، فإما النظافة والطهر والجمال، وإما الفحش والقبح والفجور.. ولا شيء بين هذا وذاك.. لا شيء وراء هذا وذاك.. وليس بعد الحق إلا الضلال.. والضلال يمتد اللحظة قبالتنا تمامًا حيث تشيع الفاحشة، وينتشر الفجور، وتصير اللواطة والسحاق قانونًا مباحًا، واغتصاب الطفولة أمرًا يوميًّا، والقوادة أسلوبًا

ضاغطًا لاستدراج قادة الأمم والشعوب إلى الشباك والفخاخ التي يعرف شياطينُ الأرض كيف يوقعونهم فيها..

ويظل المنطلق إلى هذا كله.. نقطة البداية لهذا كله.. هي الحشمة!! التي بتحقُّقها يقوم المجتمع النظيف المتوازن الجميل، وبانهيارها يجيء الزهري، والسفلس والإيدز فيأكل الأخضر واليابس.. وحيث لا يأمن الزوج على زوجته ولا هذه على زوجها ويتكاثر أولاد الحرام فلا تكاد تستوعبهم المحاضن والملاجئ، وحيث يصير الفعل الجنسي المحرم نزوة عابرة يتحتم إطفاؤها سريعًا كما يشرب الإنسان العطشان كأسًا من الماء.

إنه قانون التوافق مع الفطرة لا الاصطراع معها، فهو إذَن القاعدة مهما تراجع وانحسر، وغيره الاستثناء مهما تورم وانتشر وخُيِّل للكثيرين أنه آن الأوان لتصفية قيم الحشمة وإطلاق الحبل على الغارب، حيث يعود الإنسان لكي يتعرَّى كرة أخرى.

إن الإلف والاعتياد قد يقتلان أحيانًا عناصر الجِدَّة والدهشة والانبهار والجذب في الظواهر الكونية والاجتماعية؛ ولذا فإننا قد نجد الغربيين وهم يعاينون الحياة الإسلامية من الخارج، ويتعاملون مع أبجدياتها السلوكية والاجتماعية ابتداءً، تبهرهم الحشمة التي تتميز بها هذه

الحياة، تدهشهم قدرة الإسلام الحيوية الفائقة على حماية المجتمع من التفكك والرذيلة والفساد الذي غرقوا فيه هناك حتى شحمة آذانهم.. تأسرهم الحياة العائلية.. العَفة الآمنة المطمئنة التي تحرسها الحشمة والتي فقدوها هناك.. وقد يكون هذا بالذات سببًا لانتمائهم إلى هذا الدين، أو تقييمهم لمعطياته بخصوص المرأة في أقل تقدير.

واليوم نشهد أمرًا عجبًا.. إن العديد من الممثلات الشهيرات ممن اصطلح على تسميتهن بالنجوم، يتمرَّدن على تيار التبرُّج والتبذُّل والعهر ويلتزمن الحشمة وهن يعرفن جيدًا أنها البداية والمنطلق، وأنه بدونها فليس ثمة التزام على الإطلاق .. وهن بتحجبهن يشعرن، فيما صرحن به للصحف والمجلات، بسعادة لا تعدلها سعادة، وطمأنينة تساوي كل لحظة من لحظاتها عشرين سنة أو ثلاثين من العمل الفني الذي تاجرن فيه بأثديتهن ولكنهن لم يكنَّ سعيدات على الإطلاق.

* * *
* *
*

الموت الرخيص

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]

بعد الحشيشة والهيروين والكوكايين وإل. إس. دي وغيرها من أنواع المخدرات التي تَفنن العالم - وخاصَّة الغرب - في تصنيعها وترويجها، ها هو ذا اسم جديد ينضم إلى العائلة وينطلق من (أرض المخدرات) الولايات المتحدة، اسمه (كراك) وهو مرشح لاكتساح سوق المخدرات الدولية، ولجذب الآلاف، بل الملايين من المدمنين الجدد.

وسر (الكراك) أنه فعَّال جدًّا ورخيص جدًّا، وتلك هي الكارثة... وقد انطلق التجار الأمريكيون في ابتكار الكراك من عملية حسابية بسيطة. فالسعر الرسمي لأونسة الكوكايين التي تساوي (٢٨) غرامًا هو ألف دولار. وبعملية بسيطة يتحول غرام الكوكايين إلى ستة غرامات من الكراك يباع الواحد منها بـ (٢٥) دولارًا، وبهذا يحقق الكراك للتجار ربحًا إضافيًّا مقداره (٣٢٠٠) دولار في الأونسة الواحدة!!

والخطورة في الأمر أنه إذا كانت (حفلة) الكوكايين تحتاج إلى أونسة واحدة على الأقل، أي إلى ألف دولار،

فإن (حفلة) الكراك يمكن أن تجعل المدمن (يحلق) بغرام واحد فقط، أي بـ (٢٥) دولارًا فقط. وهذا يعني أنه إذا كان بعض مواطني المجتمعات الصناعية و (الأمريكية خاصة) ما يزالون على عفافهم إزاء المخدرات؛ بسبب عجزهم عن تحمل أعبائها المادية المكلفة، فهم الآن سوف يسقطون بسهولة في مستنقع المخدرات؛ لأن الخمسة وعشرين دولارًا لن تحدث أي عبء على كاهل ميزانياتهم الفردية.

وفي مقابل رخص ثمنه فإن الكراك يتسبب بأضرار جسيمة أين منها أضرار باقي المخدرات؟ ففي ثوانٍ معدودة ينعقد لسان متعاطي الكراك بفعل تأثير أشبه ما يكون بالصدمة الكهربائية على خلايا الدماغ، بالإضافة إلى خلل في الدورة الدموية ينعكس إرهاقًا حادًّا على القلب وعلى الأجهزة التنفسية بحيث يبدو المتعاطي وكأنه على وشك الاختناق.

والواقع أنه برغم حداثة عهده فقد بدأ الكراك يُودِي بحياة العديد من المدمنين وخاصَّة في الولايات المتحدة؛ حيث قالت مجلة النيوزويك: (يبدو أننا إزاء وباء جديد أين منه أوبئة القرون الوسطى) وذكرت المجلة أن هناك (٣٧) أمريكيًّا توفُّوا في أقل من سنة بسبب الكراك.

وخبراء الصحة العامة يجمعون على اعتبار المجتمع الأمريكي مجتمعًا مريضًا بغالبيته العظمى. وفي أحد

الإحصاءات بهذا الصدد أن هناك (١٦٠) مليون وصفة طبية للأمريكيين سنويًا. والأمريكيون يستهلكون من العقاقير المضادة للصداع وحدها ثلاثة أطنان سنويًّا.

ولهذه الأرقام الضخمة أسبابها إذا علمنا أن هناك ثلاثين مليون أمريكي على الأقل يدخنون الماريغونا، ومليونين يتعاطون الهيرويين شمًّا وحقنًا. أما الكوكايين فله خمسة ملايين زبون أمريكي دائم، و (٧) مليون يتعاطونه من وقت لآخر؛ لعدم قدرتهم المالية على تعاطيه دائمًا، بالإضافة إلى (١٢) مليون يتعاطون الإل. اس. دي. وفي إحصاءات أخرى أن هناك (١٧) بالمائة من العمال في القطاع العام يتعاطونه خلال أوقات العمل، وأن ما لا يقل عن خمسة ملايين موظف في القطاع العام يتعاطونه خلال الدوام الرسمي. أما في صفوف القوات المسلحة فقد تكتَّمت مراكز المعلومات عن إعطاء النسبة الحقيقية للعساكر المدمنين حرصًا على الأسرار الأمنية.

وإلى ذلك فالواقع أن قطاع المخدرات يحدث ضررًا فادحًا بالاقتصاد الأمريكي حيث يستهلك الأمريكيون سنويًّا ما قيمته (٣١٢) مليار دولار سنويًّا ثمنًا للمخدرات، ناهيك عن العدد اللامحدود من مليارات الدولارات التي تنفق على علاج المدمنين، والتي يخسرها الاقتصاد الأمريكي العام

نتيجة أيام التعطيل وضعف وتيرة الإنتاج الكمية والنوعية.

وإذا كانت الولايات المتحدة تحتل المرتبة الأولى في العالم بين ضحايا المخدرات فإن مصيبة المخدرات ليست حكرًا عليها وحدها. وفي إحصاءات منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة أن الدول الصناعية الغربية تستهلك حوالي ثمانين بالمائة من مجموع سلعة المخدرات العالمية.

وفي أرقام المنظمة المذكورة أن مدمني المخدرات يشكلون (٣٠) بالمائة من مجموع الشعب الأمريكي و (٣٢) بالمائة من مجموع الشعب الفرنسي و (١٨) بالمائة في باقي بلدان الغرب الصناعي بالإضافة إلى (١٢) بالمائة من مجموع الشعب الياباني. وفي أرقام المنظمة أيضًا أن العالم الثالث ما يزال حتى الآن المحسود الأول عالميًّا في مجال المخدرات حيث لا تزيد نسبة المدمنين فيه عن الستة بالمائة في أسوَأ الاحتمالات .

ويتذكر المرء خطاب الرئيس الأمريكي (جون كنيدي) في الشباب الأمريكي عام (١٩٦٣م) وخطاب الرئيس السوفيتي (نيكيتا خرونشوف) في الشباب الروسي في العام نفسه، وكلاهما يحذر من الاندفاع المخيف لشباب البلدين في تعاطي المخدرات وأن ذلك سيضعف وتيرة الإنتاج والإبداع فيما سيؤثر على الاستمرارية الحضارية في نهاية الأمر.

ويتذكر المرء - كذلك - أن الرئاسة الأمريكية نفسها نفذت في أواخر عشرينيات القرن الماضي ولمدى عقد من الزمن، واحدة من أكبر وأشد حملات منع تعاطي المخدرات، وجنَّدت لذلك مئات الملايين من الدولارات وعشرات الآلاف من رجال الأمن والشرطة، وآلاف السجون والمعتقلات، وأرقامًا خيالية من الورق المستهلك في الحملة الإعلامية ضد المخدرات... ولكنها خرجت مهزومة في نهاية الأمر واضطرت إلى إلغاء قرارها وإباحة تعاطي المخدرات.

بينما في الإسلام، تمكَّن كتاب اللَّه عبر آيات ثلاث فحسب من فطام أمة بكاملها عن شرب الخمر الذي يعتبر تقليدها اليومي لمدى قرون متطاولة من الزمن، فيما أثار دهشة وإعجاب المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) واعتبره إحدى معجزات هذا الدين!!

تلك هي إذن بعض معطيات ونذر أخريات القرن الماضي في ديار الغرب، بينما البشرية تدلف منذ سنوات إلى قرن جديد.

ما الذي يمكن أن يحدث، وفق المنطوق نفسه، على مدى عقوده القادمة؟ إنها النتيجة المحتومة لمقدمات مترعة بالدجنة والظلمة والانحراف والجنون.. وهي الحصاد

المرير لعالم تخنقه الكآبة، واليأس، والملل، والتخمة، والإحساس العبثي القاهر بألّا شيء في هذه الحياة يستحق أن يعيش الإنسان من أجله.. وتلك هي الخاتمة المشؤومة لرحلة الابتعاد عن اللَّه سبحانه.. وإنكاره... وإعلان الحرب على هديه القادم من السماء..

﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء ١٢٣] ولقد صنع الغربيون بتمردهم على خالقهم سوءًا كثيرًا وكان لا بد من تلقي العقاب.

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

إنهم ينتحرون!!

(ويليام ستيرون) من أكثر الكُتَّاب الأمريكيين المعاصرين شهرة، وهو مؤلف رواية (اختيار صوفي) التي وصل رقم مبيعاتها إلى أحد عشر مليون نسخة، وقدمتها السينما بالعنوان ذاته.

ويليام أراد أن يضع حدًّا لحياته ويضم اسمه إلى قائمة الأدباء المنتحرين: إرنست همنغواي وفرجينيا وولف ورومان غاري وجاك لندن وهنري مونترلان وستيفان زفايغ ويوكيو ميشيما..

كآبة حادة كادت أن تقود ستيرون إلى حافة الجنون.. وبعد أن برئ من أوهامه وهواجسه تمامًا تحدَّث عن الكابوس المخيف الذي سيطر على عقله وحياته. أنه مرض ليس من السهل تفسيره أو فهمه. هاجس غريب وطارئ قد يصيب أي شخص دون تمييز لعمر أو جنس أو مستوى اجتماعي وثقافي. إلا أن الشيء الأكيد أنه يصيب النساء أكثر من الرجال.

لا أحد يمكن أن يفهم سِرّ هذا المرض إلا الذي وقع في مصيدته والذي قد يقوده للتفكير بالانتحار وهو تصرف مخجل وسري جدًّا؛ لأنه ينطوي على أبشع أنواع العقاب.

ويليام ستيرون فكر جديًّا بالانتحار.. وبين تفكيره وحيرته باختيار الوسيلة الأكثر ملاءمة لإزهاق روحه، كانت ذكريات الأيام الحلوة تهاجمه من كل زاوية من زوايا المنزل، وتتردد على مسامعه ضحكات أبنائه وزوجته ليعدل في النهاية عن الفكرة التي استحوذت أيامًا طويلة على عقله، وقرر أن يستبدل بالانتحار العلاج ليتابع مسيرة حياته.

- لماذا أردت الانتحار؟

ويكون الجواب..

- الكحول، أو بالأحرى الإدمان على الكحول هو السبب الرئيسي.. هو الذي قادني إلى هذه المرحلة من اليأس فقدت معها الرغبة في الحياة.. هذا ما حدث لأدباء أمريكا السابقين: أونيل همنغواي وفوكنر.. الجميع كان يلجأ إلى الكحول لعله يمنحه الهدوء والراحة لأعصابه ولتدفعه إلى الكتابة والإبداع.. الكأس مهمتنا جميعًا ولكن يبدو أننا لم نحسن الاختيار.

هذه هي النخبة العليا في المجتمعات الغربية.. سقفها العالي.. وهي رغم ما يغمرها من ضوء ويحيط بها من تكريم وتقدير، تريد أن ترحل عن الدنيا بِصمْت... ما الذي يستطيع المرء أن يقوله إزاء هذا كله سوى أن الإنسان المنقطع عن التبصر الديني سيصل إلى طريق مظلم مسدود مهما أحاطت

به الأضواء ومُنح من تكريم.. وكأنه يتساءل - وقد تضاءلت الدنيا أمام عينيه وتكوَّمت تحت قدميه: ثم ماذا بعد؟ ماذا بعد الشهرة والغنى والمكانة والتكريم والأضواء وإشباع الحاجات الأساسية إلى حدِّ التخمة؟! إنه الفراغ المخيف والطريق المسدود والنهاية المفجعة المدومة فوق الرؤوس.

وأتذكر مقولة الأديب الفرنسي الوجودي المعروف (البيركامي): «ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى».

إنه الإحساس المكتظ بالعبثية واللاجدوى.. فليس ثمة قبل الموت وبعده سوى الأشياء ونقائضها.. الحياة المكثفة والعدم.. حلقة مفرغة لا يستطيع الإنسان كسرها والخروج منها مهما حاول.. ومِن ثَمَّ وكسعي للخروج من دائرة العذاب، يلجأ الإنسان إلى الانتحار؛ لكي يختصر الرحلة المعذبة.

ها هنا تبرز قيمة الدين.. قيمة الإيمان باللَّه وبالغيب واليوم الآخر.. فهذه وحدها هي التي تكسر الحلقة المفرغة، وتفتح الطريق المسدود، وتصل الدنيا بالآخرة، وتمنح الحياة البشرية طعمها العذب، وأملها، ويقينها، ذلك الذي اغتاله الملاحدة والوضاعون فحكموا بالإعدام على الإنسان وألجؤوه إلى قتل نفسه.

ويتذكر المرء كيف أن الإنسان في المنظور الإسلامي هو أغلى كائن في هذه الدنيا، وأن من قتله بغير نفس أو فساد

في الأرض - كما يؤكد القرآن الكريم - فكأنما قتل الناس جميعًا.. وأنه بتعبير الرسول ﷺ: « **بنيان اللَّه في الأرض ملعون من هدم بنيانه** ». ويتذكر جملة الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى حماية الدم البشري وتندد بالانتحار باعتباره رفضًا لنعمة اللَّه سبحانه وعقوقًا لسخائه وكرمه وعطاياه.. ويتذكر بعض تلك الأحاديث.

عن جندب بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينًا فحزَّ بها يده فما رقأ الدم حتى مات. قال اللَّه تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرَّمت عليه الجنة** »[١].

وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها بطنه في نار جهنم خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا، ومن تَردَّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالد مُخلَّدًا فيها أبدًا** »[٢].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **ألا من قتل نفسًا معاهدة، له ذمة اللَّه وذمة رسوله فقد أخفر بذمة اللَّه فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا** »[٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لا تُقتلُ نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سنَّ القتل** »[١].

وعن عبد اللَّه بن عمر قال: « وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي، فَنَهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل النساء والصبيان »[٢].

وعن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: « **لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم اللَّه في النار** »[٣].

وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه** » قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: « **يتعرض من البلاء لما لا يطيق** »[٤].

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند اللَّه من زوال الدنيا** »[٥]. وهذا يكفي.

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٥) رواه النسائي.

والآن.. يجيء الدور على الأطفال

لحكمة يريدها اللَّه - سبحانه - وضع في أديانه كافة ضوابط لسلوك الإنسان بلغت أقصى درجات اكتمالها في الإسلام خاتم الأديان.

إن الإنسان بطبيعته مشدود بين قطبي الإفراط والتفريط، وهو - إذا ما ترك الحبل على الغارب - لا يعرف حدودًا لإشباع غرائزه.. فإذا تجاوز الحد في ذلك راح يبحث عن صيغ جديدة ومغايرة يجدد بها دوافعه الغريزية ويمنحها الديمومة والاستمرار والقدرة على الإشباع.

وبمرور الوقت يصبح أسير نزواته، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تحرره منها.. ويصبح القانون الوحيد الذي يحكمه هو البحث عما يعيد الحيوية والتدفق إلى طاقاته المستهلكة؛ لكي ما يلبث في نهاية الأمر أن يخرج عن سويته البشرية ويغدو ركامًا.

لقد طويت صفحة الإباحية بين الرجل والمرأة في ديار الغرب.. ومن أجل تجديد اللذة الصرفة تحول العديد من الرجال والنساء إلى الممارسة المثلية الشاذة التي أقرتها البرلمانات والحكومات والمؤتمرات هناك. ثم ما لبث السيل الجارف أن انحرف عن مساره الملتوي لكي يبحث

عن مسار أكثر التواءً، يمنحه اللذة التي تآكلت بانفتاحها المطلق على الإشباع.

الآن جاء دور اغتصاب الطفولة.. فلنتابع - قدر ما يسمح به المجال - إحدى حلقاته التي تنذر بالويل.

بدأت محكمة فرنسية في يوم (٢٨/ ٧/ ٢٠٠٥م) بإصدار الأحكام ضد المتهمين في أكبر قضية لاغتصاب الأطفال، وتحاكم المحكمة (٣٩) رجلًا و (٢٦) امرأة بتهمة الاعتداء على (٤٥) طفلًا واستغلالهم للدعارة في أحد أحياء منطقة انجرز التي تبعد (١٦٥) ميلًا عن باريس. وفي مقال بصحيفة الغارديان البريطانية في (٤/ ٣/ ٢٠٠٥م) قال أحد المحامين: إنها قضية فيها كل الفظائع، فبعض الضحايا أطفال لم يتمكنوا من المشي بعد، وبعض المتهمين اغتصبوا أبناءهم وباعوهم لأشخاص ليمارسوا الجنس معهم في مقابل الطعام أو السجائر. وذكرت نفس المقالة أن فتاة تبلغ من العمر(٤) أعوام اغتصبت (٤٥) مرة.

لقد انتشرت جرائم الأطفال وحيازة صور الاعتداءات في العالم الغربي وذكرت الغارديان في (٥/ ٣/ ٢٠٠٥م) أن مكتب التحقيق الاتحادي (الـ FBI الأمريكية) قد حصلت على تفاصيل مئتين وخمسين ألف شخص يشتبه في أنهم يراودون مواقع على الإنترنت تعرض صور جرائم

الأطفال، كذلك ما ذكرته شركة BT للاتصالات وهي من أكبر شركات خدمة الإنترنت في بريطانيا، بأنها تمنع يوميًّا ستين ألف محاولة للدخول على مثل هذه المواقع.

وعلى الرغم من أن الحكومات الغربية تقوم بحملات ضد مرتكبي الجرائم، وتعاقبهم عليها، كما أنها أنشأت مؤسسات لحماية الأطفال واحتضانهم بعد نزعهم من ذويهم إذا اشتبهوا في حالات اعتداء، ولكن رغم ذلك فإن هذه الجرائم في ازدياد فظيع. ففي بريطانيا ذكرت وزارة الداخلية أن عدد الجرائم الجنسية ضد الأطفال قد ازداد من (٥٤٩ في ٢٠٠١ إلى ٢٢٣٤ عام ٢٠٠٣م).

وهكذا نجد أن الغرب يتعامل مع الجريمة بعد حدوثها، بدل أن يقوم بمعالجة الأسباب المؤدية إلى هذه الظاهرة.

أمامي إحصائية قام بها معهد (سامبل) في ألمانيا عام (١٩٩٤م) وهي تعكس الفوضى الأسرية التي يعيشها القوم هناك والتي يكون ضحاياها النساء والأطفال معًا. وهي إحصائية تتعلق ببلد واحد في ديار الغرب، فماذا لو تابعنا ما يجري على مدى تلك الديار؟

إنها على أية حال مأساة التمرد على الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها، والانشقاق عن مطالب الأديان.. وهي تذكرنا بالآية الكريمة ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى

ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ولنرجع إلى الإحصائية المشار إليها والتي تتحدث بلغة الأرقام:

١ - تناقص عدد الزيجات منذ عام (١٩٥٠) إلى عام (١٩٩٢م) بمعدل (٢٥٪) وازدادت معدلات الطلاق بنسبة (١٦٪) وصلت إلى (٣٤٪) من حالات الزواج بمجموعها.

٢ - (٢٥٪) من الأمهات دون أزواج، و (٢٥٪) من الأطفال دون أم أو أب، ويولد (٢٥٪) من الأطفال دون زواج.

٣ - يعيش حوالي (١٢) مليون شخص على انفراد من أصل (٨٠) مليون نسمة.

٤ - وصلت نسبة أسر المعاشرة إلى أسر الزواج إلى حوالي (١٠٪).

٥ - حالات الاغتصاب السنوية التي تم التبليغ عنها للسلطات (٦٣٠٠).

٦ - التقدير الرسمي لحالات الاغتصاب دون تبليغ (٢٠٠) ألف.

٧ - حوادث الاعتداء الجنسي على الأطفال المعروضة

أمام القضاء (١٦٥٠٠).

٨ - التقدير الرسمي لحوادث الاعتداء الجنسي على الأطفال دون وصولها إلى القضاء (٣٠٠) ألف.

٩ - (٥) ملايين امرأة أو (٣٣٪) من النساء المتزوجات والمعاشرات يتعرضن للضرب من الزوج أو العشير. وتصل حوادث الاعتداء بالضرب الذي يترك آثارًا جسدية دائمة على الأطفال إلى (٣٠٠) ألف سنويًّا، ويموت أكثر من ألف سنويًّا ضربًا.

١٠ - تقول دراسة جامعية: إن متوسط توزيع وقت الأب والأم يوميًّا يتضمَّن ما يعادل (٣٠) دقيقة للولد الواحد.

إذا كان الحال بهذه البشاعة عام (١٩٩٤م) فكيف به الآن بعد مضي كل هذه السنوات على الإحصاء المذكور؟!

وإذا كانت الأرقام بهذه الكثافة في بلد واحد في أوربا فكيف بها على مدى عالم الغرب كله؟!

نترك ذلك للقراء والمشاهدين.....

* * *
* *
*

المستقبل لهذا الدين

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة: ٢١].

هذا إذا كنا مؤمنين حقًّا بكتاب اللَّه.

وعلى كل هزائمنا الحضارية وانكساراتنا السياسية عبر القرون الأخيرة.. على كل انحسارنا وعجزنا أمام التفوق الغربي الساحق في ميادين القوة العسكرية والتقنيات والخدمات؛ فإن الطريق لا يزال مفتوحًا أمامنا؛ لاقتحامهم وإيصال الخطاب الإسلامي إلى عقولهم ووجدانهم، وإقناعهم بأحقيته في الانتماء: علماء ومفكرين وفلاسفة ومؤرخين وأدباء وفنانين ورياضيين وساسة وإعلاميين ورجال دين وحرفيين وصُنَّاعًا.. أغنياء وفقراء.. بيضًا وملونين.. رجالًا ونساء..

لقد وصلت الأديان السماوية المحرفة إلى طريق مسدود، وتساقطت النظم والدعوات الوضعية الواحدة تلو الأخرى.. ولم يبقَ ثمَّة إلا هذا الدين الذي يَعِد بالكثير ويمكن أن يقدم الكثير.

إننا لن نستطيع أن نخترقهم بمنطوق القوة المجردة، أو بقوة السلاح. فهذا لا يقول به أحد في المدى الزمني

المنظور.. وذلك بسبب الفارق الأسطوري بيننا وبينهم.. ولكننا سنخترقهم بقوة الفكر.. بحيثيات عقيدتنا، وبمشروعنا الحضاري البديل.

إن العالم الغربي الذي أثخنته النزعة المادية والتكاثر بالأشياء، وفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، ونسي تمامًا مطالب الغيب ونداءات الروح، هو بأمس الحاجة إلى من يعيده إليها.. إلى من يمنح حياته المسطحة سر طلاوتها الضائع، كما يقول ليوبولد فايس (محمد أسد) في « الطريق إلى مكة ».

لسنا نحن الذين نقول هذا وإنما الغربيون أنفسهم.. النخب المثقفة في عالم الغرب هي التي تقول هذا.. وتؤكد المرة تلو المرة على أن عالم الإسلام سينهض ثانية لكي يشارك مشاركة فعالة في إعادة صياغة المصير.

إن هذا الدين - كما يقول (مارسيل بوازار) رجل القانون الدولي الفرنسي المعاصر في كتابه « إنسانية الإسلام » - « يعود إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع »[1]. ولطالما أعرب عن اقتناعه « بأن في وسع العالم الإسلامي

---

(١) إنسانية الإسلام: ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت (١٩٨٠م) (ص٤٣١).

- من بين عوالم أخرى - أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب »[١]. وأنه « يبدو أحد العوامل الممكنة الهامة في الإنسانية العالمية الحديثة.. وهو مستمر في البحث عن الأشكال الكفيلة بالتعبير بصورة ملائمة عن تطلعاته »[٢]. والمسلمون كما يؤكد الرجل « لا يشكون على الإطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المراكمة عبر العصور كفيلة بتقديم حل لمعضلات العالم المعاصر »[٣].

ولا يفوت (بوازار) أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان. ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المعرفي المادي يمكن للإسلام « أن يؤدي دورًا حقيقيًا في تنظيم العالم المعاصر » عندما يتقدم إليه « بمفهومه السامي للقيم الخلقية »[٤].

وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضًا في نظر (بوازار) في التوازن الذي يمنحه الإسلام بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري، بين التقدم المادي التقني، وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة لا سيما وأن « الانخراط

---

(١) إنسانية الإسلام: ترجمة د. عفيف دمشقية (ص٤٣٩).

(٢) المرجع نفسه (ص٣٨٧).

(٣) المرجع نفسه (ص٣٣٠، ٣٣١).

(٤) المرجع نفسه (ص٣٦٩).

في المجتمع التكنولوجي؛ المواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام اللَّه، متوجبًا عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل!! »[١].

وإذ يؤكد (بوازار) ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من ثقة مطمئنة وحافز قوي في وقت معًا، فإنه يحذر من « أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية » لا تجيء به الأماني والأحلام وإنما هو « رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم »[٢].

ويشير ليوبولد فايس (محمد أسد) إلى أننا « قد نكون نحن المحدثين بحاجة إلى تلك الرسالة بأكثر مما احتاج إليها الناس في أيام محمد ﷺ. إنهم كانوا يعيشون في بيئة أبسط كثيرًا من بيئتنا نحن، وكانت مشاكلهم ومصاعبهم، أبسط حلًّا وأسهل إلى حدٍّ كبير. لقد كان العالم الغربي الذي كنت أنا أعيش فيه، كل ذلك العالم، يترنح بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحيًّا، وبالتالي اجتماعيًّا واقتصاديًّا أيضًا. إنني لم أكن أؤمن بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى الخلاص، ولكنني كنت أؤمن

(١) إنسانية الإسلام: ترجمة د. عفيف دمشقية (ص٣٨٧، ٣٨٨).
(٢) المرجع نفسه (ص٣٨٩).

فعلًا بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص. لقد شعرت أكثر من أي وقت مضى بأن عصرنا هذا كان بحاجة إلى أساس إيديولوجي لمستوى اجتماعي جديد؛ بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقيّ المادي من أجل الرقي نفسه، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقَّها.. إيمان يبين لنا كيف نقيم توازنًا بين حاجاتنا الروحية والجسدية وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور ».

كتاب رجاء غارودي: (وعود الإسلام) يقدم ملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية للإسلام. إن عنوان الكتاب يحمل بُعدًا مستقبليًّا، وبالتالي فإن مادته القيمة ستصب هناك لكي ترسم للإنسان المعاصر، الحائر، القِلق، ما يمكن أن تقدمه له الخبرة الإسلامية: « إن الإسلام يجِدُ من جديد فرصة تاريخية لإظهار أن عقيدته وقصدياته هي إجابة على قلق عالم قاده النموذج الغربي للنمو إلى التفكك الاقتصادي والسياسي والأخلاقي.. »[1].

ونحن نعرف جميعًا ما الذي فعله ويمكن أن يفعله العلم الغربي المنفصل عن ضوابط القيم، وذلك بتعبده للتكاثر والقوة وما الذي فعله ويمكن أن يفعله العلم الإسلامي المنضبط

---

(١) الطريق إلى مكة: ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٥م)، (ص٣٢٣، ٣٢٤).

بالأخلاق وبالغايات الدينية. في نهاية الأمر: « لم نشدد على الوجوه التي لعب بها العلم الإسلامي باكتشافاته دور الرائد للعلم الغربي الحالي، وإنما على صفاته الخاصة في خضوعه للوسائل الإنسانية ذات الغايات الإلهية. في هذا المنظور على القرن الواحد والعشرين أن يتعلم كثيرًا من الإسلام »[١].

أيضًا فإن الإسلام بتقديمه فكرة التسامي الأخلاقي للإنسان كواحدة من أهم مرتكزات الإسلام العقدية.. التسامي الذي يكون المؤمن فيه في حالة صيرورة متواصلة نحو الأحسن والأعلى.. هذه الفكرة لهي واحدة من أهم ما يمكن أن يقدمه المسلمون « لخلق مستقبل إنساني في عالم جعل استبعاد السمو منه، وسيطرة نموذج جنوني من النمو، لا يمكن أن يعاش »[٢].

ويتساءل (غارودي) « ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لنا ليعدّنا للإجابة على المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم »؟!

وما يلبث أن يجيب « أن المشكلة كونية ولا يمكن

---

(١) وعود الإسلام: ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة، بيروت (١٩٨٤م)، (ص٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) المرجع نفسه (ص١١١).

للجواب إلا أن يكون على المستوى الكوني »[١].

إنها إذن « قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر » ومن ثم فإن كتاب (وعود الإسلام) يعد بحق « اقترابًا جديدًا من الإسلام ومن وراء الإسلام » كقوة حية ليس فحسب في ماضيه، وإنما في كل ما يستطيع أن يسهم به في ابتكار المستقبل »[٢].

حقًّا إن الإسلام والمشروع الحضاري الذي يعبر عنه بالضرورة ليحملا « بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية »[٣].

* * *
* *
*

---

(١) المرجع نفسه (ص٣٦).

(٢) وعود الإسلام: ترجمة ذوقان قرقرط (ص٦٧).

(٣) المرجع نفسه (ص١٨٧).

التكامل الفريد

هناك حالة أو ظاهرة أو سمِّها ما شئت: إنه ما من مبدأ أو مذهب أو خبرة بشرية تنطوي على الحسن والرديء، وتتضمَّن في نسيجها شيئًا من الحُسن، إلا ونجده في حالة مقارنته وتحليله مركوزًا في نسيج الإسلام. بمعنى أن كافة الخبرات الجيدة في التاريخ والتجربة البشريتين تلتقي مع الإسلام، وبمعنًى آخر أن الإسلام يقدم للإنسانية بشكل جاهز ومعجز كل ما هو حسن في جوانب حياتها كافة، والتي لم تستطع التوصل إليه إلا بعد كدح طويل وهدر في الطاقات والأعمار.

بالمقابل فإن كل ما يبدو ناقصًا، مجتزًأ، شريرًا، مائلًا، حائدًا عن الحق في المذاهب والخبرات جميعًا، يحذر منه الإسلام، ويحرمه، ويعلن الحرب عليه. ويبدو - بشكل من الأشكال - أن المعضلة الأساسية تكمن في نِسَبِ (الخلطة) إذا صح التعبير.. المساحات المعطاة لكل صغيرة وكبيرة في حياة البشرية، وبالنسبة المحددة والحدود المطلوبة والموقع الملائم والدرجة اللونية الصالحة.

إن الإسلام وحده من يفعل ذلك؛ لأنه من علم اللَّه سبحانه، الذي يعلم من خلق، والذي لا يخفى عليه شيء

في الأرض ولا في السماء.. بينما في المذاهب الأخرى تتداخل النسب وتضطرب، وتزحف باتجاه بعضها، وتتجاوز حدودها المرسومة على حساب الأخريات، فتكون التخمة والحرمان، الشبع والجوع، الوجدان والانعدام، الأبيض والأسود..

ويكون الفرد أو الجماعة، العدل أو الحرية، الروح أو الجسد، الدنيا أو الآخرة، الأرض أو السماء، العلم أو الإيمان، المنفعة أو القيم.. إلخ، ويكون الميل والهوى والظن والفوضى والاختلال.

وبموازاة هذا، فإن شخصية محمد ﷺ الذي يمثل التعبير الكامل عن الإسلام، القرآن الذي يمشي على الأرض، تعطينا نموذجًا على توازن سائر القدرات والخبرات في الشخصية البشرية.. هل كان هذا سبب ترشيحه من (مايكل هارت) في (المائة الأوائل)؛ ليكون على رأس أعظم الشخصيات المائة في التاريخ البشري؟

ولعل هذا التوازن والتكامل الباهر في نسيج الإسلام ما يجعل من الجرم الشنيع محاولة خرقه وإدخال الاختلال إليه، بهذه الطريقة أو تلك، بتغليب عامل على آخر، أو تجاوز مساحة على حساب مساحات أخرى، أو إسكات خفقة أو نبضة؛ لكي يعلو على حسابها صوت من الأصوات.

إنه يبدو كما لو كان خطأ فادحًا؛ لأنه يميل بالموزون إلى الاختلال، وبالمتناسق إلى الاضطراب، وبالجميل الزاهي إلى المتنافر القبيح..

ويحاول أن يسحب هذه التجربة الباهرة لكي تنزل عن مستواها المتألق، فتحاذي هذه التجربة أو الخبرة أو تلك، من تجارب الناس وضلالاتهم وظنونهم وأهوائهم.

وهكذا يبدو مما شهده تاريخنا أحيانًا، خطل تلك المحاولات المتشنجة التي مارست نوعًا من هذا الخرق: المعتزلة وهم يغلبون العقل.. الصوفية المنحرفة وليست الأصيلة القائمة على التوحيد، وهي تغلب الروح.. المتكلمون وهم يغلبون المقايسات المنطقية.. الفلاسفة وهم يغلبون الميتافيزيقا على الوجود... المرجئة وهم ينحنون لضغوط الواقع المنظور... إلخ.

كما تبدو محاولة العلمانية في تاريخنا المعاصر منطلقة من الخطيئة نفسها، وهي السعي لتجزيء الإسلام، وتجاوز نسيجه الباهر المتوحد الملائم تمامًا للإنسان.

ليس هذا فحسب، بل إن العلمانية، في بدء التحليل ونهايته إنما هي سعي محموم لتحجيم الإسلام؛ لإلغاء مساحات واسعة من نسيجه والتضييق عليه، ودفعه دفعًا إلى الانكفاء في المسجد في محاولة لنصْرَنته؛ أي: لجعله دينًا طقوسيًّا

صرفًا لا يتعامل إلا مع العلاقة الفردية الخالصة بين الإنسان وربِّه.. وينسحب من مجرى الحياة الدافق لكي يهيمن عليه الطواغيت والوضاعون والأرباب.

وهم يدخلون علينا بخبثهم ومكرهم من أبواب متفرقة، ويحاولون أن يغطوا على لعبتهم بادعاء الحرص على سلامة الدين ونظافته وطهره من أن تلطخه وتمس بثوابته الأبدية أوحال السياسة، أو متغيرات الكشف العلمي القلقة النسبية، أو هدير المجتمع الصاخب الذي تحكمه المصلحة وتشكله الدوافع المادية الصرفة.

إنهم يحاولون أن يجرِّدوا الدين من قدرته على الالتحام بالحياة.. يمنعوه من إعادة صياغتها بما يريده اللَّه سبحانه، وذلك بسحب يده من السياسة والعلم والممارسة الاجتماعية ودفعه دفعًا إلى أن يترهبن وينعزل عن الدنيا؛ لكي تخلو لهم الساحات.

وإنها لجريمة مزدوجة يبدو أحد وجهيها في تشويه واجتزاء الصورة الحقيقية المتوازنة والمتكاملة والمدهشة لهذا الدين، ويبدو الوجه الآخر في إحلال معطيات الوضعيين محلها.. وهي معطيات أثبت الزمن على امتداده، قصورها وعقمها ونسبيتها وقلقها وظنيَّتها وعجزها عن تغطية مطالب الحياة على تشعبها وامتدادها..

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

عقيدة الاختيار الحر وجبريات الوضعيّين

في معظم المذاهب الوضعية ليس ثمة اختيار.. فالقوميون ينتمون بالضرورة إلى دائرة لم يكن لهم خيار في الانتماء إليها.. إنهم وجدوا أنفسهم بحكم الوراثة ينتمون إلى هذا العرق أو ذاك.. فأين الخيار اللائق بكرامة الإنسان وحريته؟

والشيوعيون يجدون أنفسهم بحكم ارتباطهم الطبقي في دائرة مقفلة، عليهم أن يخضعوا لقوانينها شاءوا أم أبـوا..

والمُسَلِّمون بمعطيات هيغل في مثاليته تأسرهم هم الآخرين مقولات مشيئة العقل الكلي وتجلِّيه المتوحد في العرق الممتاز.

وأما أتباع التحليل النفسي (لفرويد)، والعقل الجمعي (لدوركايم) فيجدون أنفسهم أسرى الجنس والكبت حينًا، وسجناء العقل الجمعي حينًا آخر..

بينما في الإسلام ينتمي الإنسان بملء حريته إلى هذا الدين بمجرد أن يؤمن إيمانًا صادقًا لا شائبة فيه بأن (لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه).

وفي آيات قرآنية عديدة يخير الإنسان في الانتماء إلى العقيدة التي يشاء: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَنٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠] ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ [ق: ٤٥] ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]..

بينما في العديد من المذاهب الوضعية يرغم الإنسان بحيثيات المذهب، وجبروت السلطة، وتضليل الإغواء، وحصر الخيارات الفكرية على الانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك.. وكلنا يذكر ما فعلته الشيوعية الأممية والنازية القومية بالشعوب والجماعات التي حكمتها..

إن الفلسفات الوضعية التي تجعل من (الحتميات) أمرًا مبررًا عقليًّا، من خلال وضع الخلفيات الفلسفية، (كما فعلت مثالية هيغل ومادية ماركس وانغلز ولنين وستالين على سبيل المثال) إنما توحي أو تغوي أو ترغم بعبارة أدق الانضواءَ إلى مذهبها.. بينما في الإسلام يتم تجاوز هذه اللعبة بل إدانتها، وتعرض الحقائق - كما هي - مستمدة من واقع الوجود الإنساني، ومن ظواهر الكون والعالم والحياة.. ويقال للإنسان ها هو ذا الطريق.. ولك أن تختار..

ولم يكن الفتح الإسلامي يومًا محاولة لقسر الآخر على اعتناق الإسلام، بل على العكس كان الهدف هو تدمير وإزاحة القيادات والطاغوتيات الضالة التي تصدُّ الناس

عن اعتناق العقيدة التي تشاء.. ومنح الحرية للشعوب في مشارق الأرض ومغاربها.. لقد كان الفتح عملًا تحريريًّا بمعنى الكلمة ولم يكن ينطوي على أي قدر من الاستلاب أو الإكراه.. ولقد عبر قادة الفتح وسفراؤه عن هذه الحقيقة عبر جوابهم الواحد للسؤال المعلق على أفواه كسرى ورستم وقيصر: ما الذي أخرجكم؟!

فيكون الجواب: اللَّه ابتعثنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده.

والتاريخ دائمًا، بوقائعه المتحققة في الزمن والمكان هو خير شاهد على مصداقية المواقف والدعوات.. ولقد أجمع الباحثون من الغربيين أنفسهم على أن النصارى واليهود والصابئة، وأهل الذمة بعامة عاشوا في ظلال المسلمين أهنأ حياة ووصلوا أعلى المناصب، بل إن بعض الأنشطة الخدمية والمالية كانت من اختصاصهم.

والحديث في هذا الموضوع يطول ويكفي أن يرجع الإنسان إلى كتاب المستشرق البريطاني (سير توماس أرنولد): (الدعوة إلى الإسلام) لكي يرى حشودًا هائلة من الوقائع على مدى التاريخ الإسلامي تؤكد هذا الذي ذهبنا إليه. وهو يخلص إلى نتيجة في غاية الأهمية وهي أنه

لم يجد، على مدى ثلاثة عشر قرنًا من أعمال الفتح وتعامل المسلمين مع الآخر، حالة واحدة أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام.

ويقول كذلك أنه لو مُورِس أي قدر من القسر والإكراه إزاء اليهود والنصارى لما بقي هناك في ديار الإسلام يهودي أو نصراني واحد أما وقد استمرت طوائفهم تنشط وتمارس حريتها الدينية والمدنية فمعنى ذلك أنهم لم يتعرضوا لأي ضغط، خاصة إذا تذكرنا أن العقائد الأدنى بممارستها القسر ضد العقائد والأديان الأعلى فإنها تزيحها من الوجود فكيف الحال بالنسبة للإسلام الذي يحتل موقعًا أعلى من كل العقائد والأديان؟

ثمة مسألة أخرى ونحن نتحدث عن المذاهب الوضعية تلك هي أنها تجبر الإنسان على معطيات نسبية هي وليدة انعكاس ظروف زمنية ومكانية محددة قد تصدق وتتلاءم مع مرحلة أو بيئة ما، ولكنها بمرور الوقت تفقد مصداقيتها.. قدرتها على الاستجابة للمتغيرات الإنسانية والموضوعية، ويصير الانتماء إليها نوعًا من التشنج على الخطأ والتشبث الأعمى به، وبالتالي نوعًا من التفريط بالحياة البشرية وفرص التاريخ.. بينما يجيء الإسلام وليد رؤية إلهية شاملة تعلو على المتغيرات النسبية المحدودة، ويضع الانتماء إليها

الإنسان في حالة وفاق وتلاؤم مع نفسه ومع الحياة والعالم والكون مهما تبدلت الظروف ومضت عجلة التاريخ.

إن المنظور الإسلامي للإنسان أنه من بين الخلائق الكونية كافة منح - ابتداء - حرية الاختيار والانتماء، بسبب من مكانته الخاصة وتفرُّده وطبيعة تكوينه المزدوج بين الروح والجسد، والعقل والغريزة، وأن حريته هذه قرينة تفوقه وتفرده وسيادته على العالمين. فاختياره إنما هو امتداد لوضعه البشري المتميز. هذا بينما في المذاهب الوضعية يتساوى الإنسان مع الأشياء، بل إنه يخضع لها فيفقد بالتالي تميزه وقدرته على الاختيار.

* * *
* *
*

حول نهاية التاريخ وسقوط الأيديولوجيات

أما نهاية التاريخ التي قال بها المنظر الأمريكي (فرنسيس فوكوياما) فلا تعدو أن تكون افتراضًا، وهو إذا أحلناه على قوانين الحركة التاريخية نفسها يغدو افتراضًا مستحيلًا...

ذلك أن البشرية فطرت على التغاير والتنوع والاختلاف، وهي معطيات تعكس نفسها على مرآة التاريخ حينًا، والجغرافيا حينًا آخر، وبصيغ شتى قد تبدأ بلون البشرة واللغة، والعادات والتقاليد الأولية، وتنتهي بالنشاط أو الفعل الحضاري بمفهومه الشامل.. وكل المحاولات التي جرت لإلغاء هذه الحقيقة أو تجاوزها، أو القفز عليها، آلت إلى الفشل.

و(فوكوياما) نفسه عاد، بعد سنوات من إصداره كتابه المعروف، لكي يغير ويبدل في بنيته الأساسية ولكي يعطي المجال للتغاير المحتوم بين الأمم والجماعات والشعوب.

لقد قالها القرآن الكريم بوضوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] أي: خلقهم للتغاير والتنوع والاختلاف، وهي من بين جملة من الشروط التي تعين على تحريك الحياة البشرية ودفعها إلى الأمام، وتطهيرها من

السكون والفساد: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٢٥١].

في يوم ما حلمت الشيوعية بنهاية التاريخ على طريقتها الخاصة، تسلم البروليتاريا مقاليد السلطان وتسوية الأمم والشعوب تحت مظلة شيوعية يستوي فيها الجميع، وتذوب خصوصيات وفواصل الأمم والطبقات والشعوب، ويغيب العمق التاريخي، والإرث الحضاري، حيث لا يتبقى هناك سوى نماذج مكررة تنتظر فرصتها للمأكل والمسكن والجنس.. فماذا كانت النتيجة؟

واليوم يحاول مُنظِّر أمريكي كفرنسيس فوكوياما أن يعيد المقولة نفسها ولكن تحت مظلة الرأسمالية وبقيادة الدولة الأكبر والأقوى: الولايات المتحدة الأمريكية. وهروَلَ المخدوعون بهذا الادعاء يلقون أرديتهم وخصوصياتهم وإرثهم الثقافي ودينهم وعقيدتهم، وهم يتصورون أن الانتماء للمظلة الجديدة سيمنحهم الخبز والدفء والملذة والأمان.

وفي اعتقادي فإن نظرية نهاية التاريخ ولدت كي تموت؛ لأنها ترتطم ابتداء بقوانين التاريخ نفسه!

وأما سقوط الأيديولوجيات الذي أكدته معطيات القرن الأخير المنصرم حيث تهاوت نظرية الرجل الأبيض،

والاستعماريات الغربية الكبرى، والشوفينيات العملاقة، والوجودية ذات الإغراء.. والشيوعية السوفيتية الأممية و.. فإنه لا يعني - بالضرورة - عدم قدرة الأيديولوجية أو العقيدة الأكثر انسجامًا مع مطالب الإنسان، على التواصل والديمومة والبقاء.. بل على العكس تمامًا: إن سقوط الأيديولوجيات الوضعية يؤكد ضرورة الأيديولوجية الدينية؛ لأنها الوحيدة التي لا تأسرها نسبيات الزمن والمكان، أو تصوغها عقول بشرية، مهما جدت واجتهدت فإنها عرضة للخطأ والقصور والانحياز.. لأنها تفتقد - ابتداءً- القدرة الشمولية، والرؤية الموضوعية العادلة، للوجود والمصير.

والعولمة هي إفراز طبيعي تمامًا لجملة من الشروط والعوامل التي شكلت الحضارة الغربية المادية عبر القرون الثلاثة الأخيرة.. وهي مزيج مرتبط الوشائج من كل المؤثرات والمعطيات التي تنطوي عليها هذه الحضارة: التفوق العلمي في سياقيه الصرف والتطبيقي، والقدرة العسكرية بتقنياتها الهائلة المتمخضة عن ذلك التفوق.. والإمكانات الاقتصادية الأسطورية.. والمركزية الأوربية المنسحبة، أو المهاجرة إلى القارة الجديدة، ورؤية الرجل الأبيض للشعوب الأخرى، والعقلية الاستعمارية الباحثة عن تسخير الأيدي والعقول العاملة الأكثر رخصًا وعطاءً،

وعن الخامات التي تديم قدرتها على العمل والاستمرار، والأسواق التي تلتهم إنتاجها.. أضف إلى ذلك نبضها الديني الذي لا يزال يخفق تحت أردية العلمانية والإلحاد وينتظر الفرصة للرد على أولئك الذين تحدوه يومًا، وإنزال العقاب بهم.

هذه كلها تجتمع اليوم لكي تشكِّل منطوق العولمة بفرضياته ومعطياته معًا.. بل إن نظرية نهاية التاريخ نفسها، وبموازاتها نظرية صراع الحضارات لصمويل هنتنجتون وغيرهما من التنظيرات الفكرية تصب هي الأخرى في بؤرة العولمة.

ولنتذكر اللدغة التي تلقتها المنظومة الشرق أقصوية التي طمحت إلى قدر من الاستقلالية في نشاطها الاقتصادي والمالي... حيث سنجد أن الخاسر الوحيد في لعبة العولمة، أو دولابها الأسطوري هي الشعوب الأضعف، مهما كانت مطالبها عادلة ومحقة.

إن خط الغنى والفقر الذي سبق أن تحدث عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي - رحمه اللَّه - والذي يمتد على محور طنجة - جاكرتا فيفصل العالم إلى شمال وجنوب.. لن يكون بمقدور العولمة أن تلغيه بوعودها الخادعة، بل على العكس، وكما هو واضح عبر معطيات

العقد الأخير، ستزيده عمقًا، وسيكون عبور الخنادق الموغلة بين الطرفين أمرًا مستحيلًا.

* * *
* *
*

عجيب أمر هذا الدين

كلما عجنته المحن ازداد قوة وصلابة... كلما محَّصته النار نفض عنه الدخل وتمحض ذهبًا خالصًا.. كلما تناوشته الخطوب طالت قامته ومضى إلى غايته بثقة تزلزل الجبال الرواسي.. كلما أحدقت به سكاكين الكراهية والبغضاء ازداد صحة وعافية... زرعًا يخرج شطأه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار..

وليس من قبيل المبالغة أن يخمن المرء أنه ما من مرحلة من مراحل التاريخ إلا واشتد فيها الكيد لهذا الدين وتكالب عليه الخصوم من كل مكان وحرض المحرضون، كالمرحلة الراهنة التي يراد فيها للإسلام أن يفقد كل قدراته الفاعلة، وأن يغدو حملًا وديعًا لا حول له ولا طول.

إنهم يسعون إلى تجفيف منابعه الدعوية والحركية والتربوية والفكرية والمالية؛ لكي لا يبقوا له شيئًا على الإطلاق.

إنهم يؤلبون عليه الأعداء والأصدقاء، وهم يتداعون من كل مكان، بالصيحة نفسها: حجموا هذا العملاق.. حاولوا أن تقزِّموه.. أن تجرِّدوه من كل قدرة على الفعل، وأن تحبسوه في الصوامع والمساجد لا يغادرها إلى الحياة أبدًا.

الأرصدة المالية.. المؤسسات الخيرية.. الأنشطة الدعوية.. المدارس الدينية كلها يجب أن تقفل ويوضع على أبوابها الشمع الأحمر لكي لا يجرؤ أحد على كسر الأقفال والدخول.

للوهلة الأولى.. للنظرة السريعة.. للحسابات الساذجة.. يبدو أن الإسلام قد هزم إزاء أعتى موجة مضادة في تاريخه على الإطلاق.. ولكن الأمر في حقيقته خلاف ذلك كله.

فالإسلام ازدادت قامته ارتفاعًا.. وهو منذ بداياته الأولى كان يتألق ويزداد فاعلية وعطاءً كلما ادلهمَّتِ الخطوب وتناوشته التحديات...

سيقف هذا المقال لحظات عند حلقة واحدة من حلقات التفوق الإسلامي على الكيد والتآمر.. حلقة الانتشار المدهش في الساحات الغربية، فإن عدد الذين أعلنوا إسلامهم في الولايات المتحدة الأمريكية عبر السنوات الخمس الأخيرة كانوا أكثر من السنوات الخمس التي سبقتها بحساب الأرقام.. والأمر نفسه شهدته الساحة الكندية.

إنهم يحبون أن يتعرفوا على هذا الدين... وبمجرد تعرفهم عليه يقتنعون بمصداقيته ويعلنون انتماءهم إليه.. إن له قوة جذب مدهشة (للآخر) وهو يتعامل معه بصدق وموضوعية.. إنه دين مُعَقْلَن بمعنى الكلمة، لا ينطوي

على أية مفردة تند عن حكم العقل والمنطق على الإطلاق.

في أوربا يحدث الشيء نفسه... ولن يتسع المجال لمتابعة التفاصيل ولنتابع - بدلًا من ذلك - عينة واحدة قد تغني عن الاستقصاء.

تحت عنوان: (بلجيكا.. أعلى معدل لاعتناق الإسلام في أوربا) نشر موقع (إسلام أون لاين) بتاريخ (٢٦/٢/٢٠٠٦م).

« في مقهًى بشارع (ليمونييه) في قلب العاصمة البلجيكية بروكسل حيث تتركز غالبية عربية، كثيرًا ما يردّد شباب المسلمين المقدم على الزواج تعبيرًا مغاربيًّا دارجًا: (جبتها) وهي كلمة يقصد منها تحول البلجيكيات إلى الإسلام كشرط للزواج منهن، إلا أن هذا ليس السبب الوحيد ولا الرئيس لاعتناق البلجيكيين الإسلام.

« ويقول موفد (إسلام أون لاين) إلى بروكسل: إن ظاهرة اعتناق الإسلام لا تنحصر في الشابات البلجيكيات فحسب، بل في الشباب البلجيكي أيضًا الأمر الذي دفع جريدة (لوسوار) البلجيكية لدقّ ما اعتبرته (ناقوس الخطر).

« وذكرت الصحيفة في عددها الصادر يوم (١٨/٢/٢٠٠٦م) أن الإحصائيات تقول: إن عدد البلجيكيين الذين اعتنقوا الإسلام وصل لنحو (٤٠) ألفًا

في الأعوام القليلة الماضية، وهو المعدل الأعلى في أوربا خاصة إذا ما قورن بعدد سكان بلجيكا (١٠ ملايين نسمة)، ما دفع اليمين المتطرف البلجيكي للتحذير من نتائج الزواج المختلط بحسب (لوسوار). ويبلغ عدد إجمالي مسلمي بلجيكا (٤٥٠) ألفًا.

« ويؤكد (جيروم فرانسوا) (٢٧ سنة) أحد هؤلاء المعتنقين الجدد للإسلام، في لقاء له مع شبكة (إسلام أون لاين) في (٢٠/ ٢/ ٢٠٠٦م) أن زواجه بمغربية جاء بعد أن اعتنق الإسلام، وأن اعتناقه للإسلام قبل (٧) سنوات لم يكن سببه أنه كان يريد الارتباط بمغربية مسلمة، بل أن بحثه الخاص عن (الإشباع الروحي والحقيقة الدينية) هو الذي أتى به إلى الإسلام ».

وعن سرِّ اقتناعه بالإسلام يقول (جيروم): « إنه دين بلا وسطاء »، ويضيف: « هذا ما كنت أبحث عنه. وعندما نطقتُ الشهادتين، وبدأت الصلاة، وتزوجت من مسلمة شعرت في داخلي أني كنت دائمًا مسلمًا وأن الأمر كان يتعلق بتكملة ضرورية ».

« الشعور بكون المرء مسلمًا حتى قبل أن يسلم قاد أيضًا (فرانسوا كلارنفال) (٤٧ سنة) إلى الإسلام. وقال: « أن مساره نحو الإسلام كان مسارًا للبحث عن الحقيقة ». وكان

(كلارنفال) قد مرَّ بتحولات عديدة في حياته، فمن مراهق كاثوليكي، إلى ناشط في الحزب الشيوعي، إلى ملحد. ولم يجد ما يشبع رغبته الروحية إلا في الإسلام، حيث يقول: « عندما اكتشفت الإسلام أحسستُ أني وصلت إلى بيتي وإلى عائلتي ».

* * *
* *
*

العولمة الثقافية وتحديات الشاشة الصغيرة

الحديث عن العولمة يطول، وجبهاتها عديدة، وقد قيل فيها الكثير، وكتب الكثير؛ لذا سأقف في هذه العجالة عند جزئية محددة، تمثل آلية من آليات العولمة الثقافية وبوابة كبيرة من بواباتها، تلك هي « الشاشة الصغيرة » بمربعها المعروف: التلفاز، الكمبيوتر، الفضائيات، والإنترنت، وما يمكن أن يفعله الجهد التربوي في مواجهة تحدياتها، بعد إذ فرضت هذه الشاشة نفسها على المساحات الأوسع من ديارنا الإسلامية، وأصبحت زائرًا يوميًّا اخترق بيوتنا وعقولنا، وأوغل حتى باتجاه غرف نومنا، حاملًا معه سرطان الثقافة الغربية بإيجابياتها وسلبياتها، بعلومها وفنونها، برؤيتها المادية الصرفة للحياة، ونزوعها الانحلالي السافل، وبهيميّتها الحيوانية... بتجاوزها الفاضح لمنظومة القيم الدينية والإنسانية والأخلاقية.

... في حالة كهذه يغدو الجهد التربوي مع الأبناء ضرورة من الضرورات، ويصبح على الأب والأم أن يضعا نفسيهما في حالة إنذار من الدرجة القصوى والدائمة، ليس فقط لمراقبة الأبناء، وإنما لتوجيههم ومنحهم الصيغ الأكثر ملاءمة في التعامل مع الشاشة الصغيرة، وإلا فإن المستقبل

ينذر بالويل.. بضياع الأبناء إزاء إغراء الشاشة الصغيرة وما تمارسه من استلاب وتفكيك لشخصياتهم وقيمهم، واختراق لسلوكهم وإيمانهم.

ولنتذكر حديث رسول اللَّه ﷺ: « **كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته..** »[١] فها هي ذي المسؤولية التي تَفرض على الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، في اللحظات الراهنة، وإزاء تحديات الشاشة، واجبًا ملزمًا يتطلَّب تعزيز القيم الدينية والسلوكية للأبناء، وتحصينهم فكريًا وثقافيًا، وتحديد زمن التعامل مع الشاشة الصغيرة، وبرمجة صيغ الإفادة منها، فيما يحد من تأثيراتها السلبية، وربما المدمرة، على كل المستويات.

إن الشاشة الصغيرة بمربعها المذكور، تُوظَّف اليوم وإلى حدٍّ كبير، لمطالب العولمة الثقافية، وتأكيد الرؤية الغربية المادية للحياة، ونشر الفاحشة، وتشجيع العنف والجريمة والشذوذ، والتشكيك بالقيم الدينية، وتدمير الثقة بالذات، وتأكيد العزلة الاجتماعية، وتفكيك الروابط الأسرية، وإشاعة الكسل العقلي، والثقافة المتضحلة الجاهزة، وإبعاد الكتاب وتقاليد المطالعة، باعتبارها المعلم الأكثر فاعلية... هذا فضلًا عن التأثيرات الصحية السيئة، وهدر الوقت، وتضييق الخناق

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

على مساحات الذكر والعبادة والدعوة إلى اللَّه سبحانه.

وإزاء هذا كله لابد من تفعيل الجهد التربوي حتى وتائره القصوى.. لا بد من حضور فاعل مؤكد للأب والمعلم والمدرس والأستاذ والشيخ والواعظ والخطيب.. والمسجد والمدرسة والمجلة والكتاب، والبرامج الفنية والتعليمية الهادفة، قبالة الأطفال والصبيان والمراهقين والشباب قبل أن نخسرهم إلى الأبد.. لا بد من موازنة ضلال العولمة الثقافي بتعزيز قيم الإيمان وسلوكياته، عبر نشاط تربوي هادف، مبرمج، مرسوم، في البيت والمدرسة والمسجد وحلقات الإعلام، والمنتديات العامة.. وإلا فهو الميل العظيم الذي حذرنا منه كتاب اللَّه، والذي يؤذن بالكارثة: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧].

* * *
* *
*

الصراط الوحيد

معظم الذين انتموا إلى الإسلام من الرجال والنساء، كان جوابهم عندما يُسألون عن سبب الانتماء: أن هذا الدين هو« الصراط الوحيد »..

بكلمتين فقط تختصر القضية كلها!!

وبما أنهم جاءوا من بيئات أخرى غير إسلامية، وتعاملوا مع مذاهب وضعية عديدة، وأديان محرفة، وخبرات شتى، فإنهم يعرفون جيدًا ما الذي تعنيه عبارة « إن الإسلام هو الصراط الوحيد ».

لقد اكتوَوا بالنار، وعانوا من المناهج الملتوية، واجتازوا طرقًا مُعوجَّة، ثم فاءوا إلى الإسلام، وكأنهم يستجيبون للنداء القرآني الخالد: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

على خط مستقيم إلى الأهداف التي تليق بإنسانية الإنسان، وتستجيب لمطامحه، وتمكنه من أداء وظيفته الكبرى في العالم.. هذا ما يأخذ الإسلام بأيدي الناس إليه.. عبر الصراط..

وسعادة البشرية، أو تعاستها وشقاؤها، تكمن في نقطة الانطلاق هذه.. في اختيار الطريق الذي سيجتازه الإنسان

في رحلة حياته الدنيا..

وهما في حقيقة الأمر طريقان لا ثالث لهما على الإطلاق: الصراط الذي يقود إلى اللَّه.. والسُّبل التي تسلمه للشيطان..

والسعيد السعيد من أدرك بذكائه هذه المعادلة الواضحة كنور الشمس، فاختار أن ينطلق من نقطة البداية الصحيحة، وإلّا تعرَّض للضياع..

الإسلام هو صوت النبوَّات جميعًا.. هو جوهرها وروحها وخلاصتها.. هو حالة الاكتمال في معمارها الكبير.. وبالتالي فهو الطريق الوحيد الذي تتجلَّى فيه حِوارية السماء مع الأرض.. واللَّه سبحانه مع الإنسان.. ومِن ثَمَّ فلن يقبل من غير السائرين فيه، أولئك الذين لم يتخذوه صراطًا.. لأنه ليس ثمة صراط غيره: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ذلك هو منطق الأشياء، والحق الذي ليس بعده سوى الضلال..

لنستمع إلى شهادات موجزة لثلاث من النساء الغربيات اللواتي انتمين إلى الإسلام، وكان الدافع الأساس لهذا الانتماء أنهن وجدن هذا الدين قد وضع الأشياء في أماكنها تمامًا.. فيما قصَّه علينا عرفات كامل العشي في كتابه القيّم (رجال ونساء أسلموا):

تقول الأمريكية (سالي جان مارش): « على فرض وجود بعض القيود على المرأة المسلمة في ظلِّ الإسلام، فإن هذه القيود ليست إلّا ضمانات لمصلحة المرأة نفسها، ولخير الأسرة، والحفاظ عليها متماسكة قوية، وأخيرًا فهي لخير المجتمع الإسلامي بشكل عام ».

وتقول: « لقد لاحظت أن المشكلات العائلية التي يعاني منها الغرب لا وجود لها بين الأسرة المسلمة التي تنعم بالسلام والهناء وكذلك الحب، فلا الزوج ولا زوجته في ظلِّ الإسلام يعرفان شيئًا عن موعد العشَّاق ومودة الصديقات السائدين هذه الأيام في الأقطار غير الإسلامية. لقد أحببت هذا الجانب من الحياة الإسلامية حبًّا كبيرًا؛ لأنه يمنح الزوج والزوجة والأبناء ما لابد لهم منه من حبٍّ وإخلاص وسلام يعمر حياتهم. وليس ذلك فحسب، بل بفضل هذا الإخلاص في العلاقات الزوجية بين المسلمين، هم واثقون أن أبناءهم حقًّا من صلبهم غير دخلاء عليهم. وهذا مفقود في المجتمعات الأخرى ».

وتقول الألمانية منى عبد اللَّه ماكلوسكي: « في ظلِّ الإسلام استعادت المرأة حريتها واكتسبت مكانة مرموقة. فالإسلام يعتبر النساء شقائق مساوين للرجال، وكلاهما يكمل الآخر ». وتقول: « إن المرأة المسلمة معززة مكرمة

في كافة نواحي الحياة. ولكنها اليوم مخدوعة مع الأسف ببريق الحضارة الغربية الزائف. ومع ذلك فسوف تكتشف يومًا ما كم هي مضللة في ذلك، بعد أن تعرف الحقيقة ».

وتقول: « إن الإسلام يحضُّنا على القيام بالعمل المثمر، شريطة أن نلتزم نحن النساء بالحشمة في لباسنا وأن نستر جمال أجسادنا. وعلينا أن نكون جادين في حديثنا. وهكذا فالإسلام لا يمنع المرأة من ممارسة أي عمل شريف يناسب طبيعتها. إلّا أن أقدس واجب على المرأة هو واجبها الطبيعي في خدمة أسرتها والعناية بأعضائها؛ لأن جزاءها على هذا يعادل أجر المقاتلين في سبيل اللَّه. والمرأة المسلمة ما زالت تقوم بهذه الواجبات بكل اعتزاز ».

وتقول : « إن نشاطات المرأة المسلمة قد تمتد أحيانًا خارج المنزل، فبعض النساء المسلمات كن يقمن بمسؤوليات عامة.. في الحرب والتجارة.. ولكن ذلك كله كان في إطار الخلق الكريم ».

وتقول الإنكليزية روز ماري هاو: « الحجاب شيء أساسي في الدين الإسلامي؛ لأن الدين ممارسة عملية أيضًا. والدين الإسلامي حدَّد لنا كل شيء كاللباس والعلاقة بين الرجل والمرأة.. الحجاب يحافظ على كرامة المرأة ويحميها من نظرات الشهوة، ويحافظ على كرامة المجتمع ويكف الفتنة

بين أفراده؛ لذلك فهو يحمي الجنسين من الانحراف. وأنا أومن بأن السترة ليست في الحجاب فحسب، بل يجب أن تكون العفة داخلية أيضًا، وأن تتحجب النفس عن كلِّ ما هو سوء ».

وتقول : « أنا أفهم أن الإسلام يعتبر الزوج أقرب صديق لزوجته، إذ تكن له كل ما في نفسها؛ لأن الزواج في الإسلام علاقة حميمة مبنية على شريعة اللَّه، لا تضاهيها العلاقات العادية الأخرى ».

* * *
* *
*

الطاغية والشهيد

عبر لقطة مؤثرة من فيلم (عمر المختار) يقف عمر (معلّم الكتاتيب) أمام طلبته الصغار ويتلو: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]

يتقدم منه أحد قادته الميدانيين ويسرّ في أذنه شيئًا.. سنعرف فيما بعد أن فرقة من الإيطاليين دهمت على حين غفلة قرية ليبية غاب عنها رجالها وشبابها، وأبادت من فيها من النساء والشيوخ والأطفال..

يتوقف عمر عن التلاوة وقد انتفضت أوداجه غضبًا، وامتطى صهوة فرسه، وقبل أن يغادر وصاحبه المكان، راح يتلو مرة أخرى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾، ثم انطلق لا يلوي على شيء..

سنعرف بعد قليل كيف أنه سيباغت بخيّالته معسكرًا إيطاليًّا ويبيد من فيه وما فيه من المقاتلين والعتاد.

وعاد إلى طلبته الصغار لكي يحكي لهم كيف أنه نفذ الأمر الإلهي ووضع الميزان في دنيا طاشت فيها الموازين على أيدي الطواغيت والأرباب..

هذه اللقطة تنطوي - بالتأكيد - على بعد تربوي عميق، قد يكون أبلغ بكثير من عشرات الدروس تلقى على عقول الطلاب..

إنها قوة الفن التي تمنح الحياة للأفكار فتشخّصها واضحة مجسدة ملء السمع والبصر والوجدان.

إن الحضارة ليست في التقدم المادي وحده، وإنما هي في صيغة التعامل مع إنسانية الإنسان.. وإلّا فأيهما أقرب إلى البربرية وأبعد عن بداهات التحضر: عمر المختار وأتباعه الذين لا يقاتلون سوى المقاتلين، أم الفرقة الإيطالية وهي تذبح وتحرق وتدمّر دونما تفريق على الإطلاق؟

إن الفيلم يقدم صورة مؤثرة عن هذه المفارقة، ويمنح المشاهد المصداقية عن كذب التحضر الغربي وزيفه وادّعائه..

ولكم نحن بحاجة إلى مزيد من الأفلام الكبيرة بإخراجها وحوارها وتمثيلها، تؤكد للعالم القيم العليا لهذا الدين، وتدين - في الوقت نفسه - القيم السفلى لأعداء هذا الدين..

ثمة قيمة أخرى تخطر على البال لدى مشاهدة الفيلم الذي ينتهي بإعدام عمر المختار، ولكنها النهاية التي تعد بعودة أخرى للبطل المسلم القادم من رحم الغيب والذي سيواصل الطريق..

تلك هي مصائر الأبطال عبر التاريخ والتي تنطوي هي الأخرى على مفارقة مؤثرة.

ذلك أن عمر المختار انتهى وهو في القمة لكي ما يلبث أن يرجع مرات ومرات ريثما تتهيأ الأسباب..

أما خصمه وقاتله (موسوليني) فقد انتهى وهو في الحضيض لكي لا يرجع مرة أخرى على الإطلاق..

إنه العقاب الإلهي العادل الذي ينزل - طال الوقت أم قصر - بالطاغوت الذي نفذ المذبحة، وساق المختار إلى الإعدام بأبشع صيغة في التاريخ الحديث.

وأتذكر وقفة (موسوليني) المعروفة في شرفة قصره في روما، بتألهه وتكبره المعهودين.. قبالة جماهير أمته المأخوذة بعبادته، وهو يصرخ: (سنركز راياتنا فوق النجوم) فتنحني له الجماهير تقديسًا وإعجابًا وتصفِّق حتى تتورم أكفّها، وتكاد تسجد للصنم المعبود..

وأتذكر - في المقابل - نهايته الذليلة كما حدثنا عنها (دوكو) في كتابه (الوثائق السرّية) حيث أخذ يهرب وعشيقته كجرذين مذعورين من مكان إلى مكان وجماهير الإيطاليين تلاحقهما لكي تنزل بهما العقاب، وهما في أكثر الحالات البشرية تعاسة وبؤسًا..

إن عـقاب اللّه سبحـانه آتٍ لا ريـب، وإنه ﷻ يمهل

ولا يهمل.. والمسألة مسألة وقت فحسب، وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون..

ولهذا يخاطب اللَّه سبحانه رسوله الكريم ﷺ مواسيًا ومُصبّرًا، ومطمئنًا على المصائر والمقدرات: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾ [المعارج: ٥ - ٧].

فمن كان يتصوّر في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته أن هذا الطاغوت الإيطالي الجبار سيؤول به الأمر إلى ذلك الوضع المخزي الذي حدثنا عنه (دوكو) في كتابه ذاك؟

كلاهما انتهت رحلة حياته بالموت: القاتل والقتيل.. الطاغية والشهيد.. ولكن كم هو الفرق كبير حقًّا بين ميتة هذا وشهادة ذاك؟!

* * *
* *
*

أمانة البلاغ

يـمكن أن تـكون الآيـة الكريمة ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

هي المفتاح..

فلقد وصّل اللَّه - سبحانه - القول إلى البشرية بواسطة أنبيائه الكرام - صلوات اللَّه عليهم -.. وإذا كانت جهود الأنبياء تتمركز في بقع محدودة من العالم، فإن مسؤولية البلاغ وإيصال (القول) إلى المناطق والبيئات الأكثر اتساعًا تقع على عاتق الأتباع.. والقول هو الهدى والمنهج والصراط الذي وعد به آدم عليه السلام منذ اللحظات الأولى لهبوطه.

وإذ كان الإسلام هو خاتم الرسالات، والدين الذي اكتمل ليكون منهاج البشرية في هذا العالم، والذي قدر له أن يصدّق الديانات السماوية التي سبقته، وأن يهيمن عليها.. كان على المنتمين إليه من المسلمين أنفسهم أن يحملوا أمانة البلاغ، وأن يقوموا بمهمة إيصال القول إلى البشرية كافة.

وإنها - والحق يقال - مهمة صعبة، ولكننا بقبولنا الانتماء إلى هذا الدين كان علينا أن نتحمل عبئها الثقيل، وإلّا فهو الحساب العسير..

نحن مسؤولون عن أية بقعة في هذا العالم لم يصلها صوت

الإسلام، قرية أم مدينة أم دولة أم قارة.. من ديار الإسكيمو الجليدية في أقصى شمال العالم، وحتى مستنقعات أفريقيا السمراء وغاباتها وسهولها.

وإذا كان ثمة عذر في الماضي في التقصير بأداء هذه المهمة، فإن التطور الأسطوري المدهش لوسائل الاتصال والتناقل المعلوماتي والإعلامي عبر العقدين الأخيرين، قد أسقط كل عذر ووضع المسلمين وجهًا لوجه أمام مهمتهم الأساسية: أن يوصلوا القول للبشرية كافة.

النشاط الدعوي لا يكفي، ولابدّ أن يرافقه نشاط إعلامي مكثف ومدروس من أجل توظيف ثورة المعلوماتية والإعلامية للمساعدة على أداء المهمة الصعبة وتسريعها وتعميمها..

والقرآن الكريم، طبقًا لمعايير العدل الإلهي، لا يحمل المسلمين وحدهم مسؤولية البلاغ، ويسقط تكاليفها كلية عن الأطراف الأخرى، وإنما هو يوزعها بالقسطاس المستقيم على الطرفين معًا فيركز في فطرة الإنسان - ابتداءً - حقيقة الألوهية وربوبية اللّه ووحدانيته، لكي لا يعطيه الحجة على إنكارها والانتقاض عليها: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا

بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

ثم هو - سبحانه - يضع الطرف الآخر قبالة الإبداع الإلهي في بنية الكون المعجزة التي لا تحتاج إلى بذل جهد كبير للاقتناع بوجود اللَّه ووحدانيته واللذين يعد إنكارهما نوعًا من البلادة وغلظ القلب والكسل العقلي..

ثم هو سبحانه، مع هذا وذاك، يحمل الطرف الآخر جانبًا من مسؤولية البحث عن الحقِّ، ويرفض أن يتخذ هذا الطرف موقفًا سلبيًّا بانتظار تحرك الجهة المقابلة، بل هو يلزمه بدلائل الوجود وبداهات العقل والمنطق أن يسعى من جهته للبحث عن الحقيقة، ولفتح مسامعه جيدًا على القول المتمثل برسالات الأنبياء - عليهم السلام.

خطوة من هنا وخطوة من هناك للتحقُّق بتقارب أكثر بين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم، وللالتقاء على الحق.

الطرفان يتحملان المسؤولية، ولن يسقط قعود أحد الطرفين حجة البلاغ عن الطرف الآخر..

إنها المعادلة المتوازنة التي توزّع فيها الأدوار وفق منطوق العدل الإلهي، وعلى أساس الميزان الذي أقيم عليه بنيان السموات والأرض.

واليوم تشهد الساحة الغربية - بوجه الخصوص - تفعيلًا إسلاميًّا ملحوظًا لمهمة (توصيل القول)، توظُّف

له كل الآليات الإعلامية والمعلوماتية، والخطاب المباشر، وتحصد ثماره اليانعة يومًا بعد يوم.

هذا الإقبال المدهش على الانتماء لهذا الدين من مختلف الشرائح: الأغنياء والفقراء.. البيض والملونين.. الساسة والإعلاميين.. الفنانين والرياضيين.. الفلاسفة والمفكرين.. الكُتاب والمؤرخين.. الأدباء والعلماء.. إنما يعكس المعادلة بجانبيه معًا: جهد المسلم المكافح لإيصال القول.. وتحرك الطرف الآخر بحثًا عن الحقِّ، وانتماءً إلى هذا الدين.

حدثنا أحد كبار الدعاة الإسلاميين في ألمانيا، كيف أنه أنشأ مؤسسة لترجمة معاني القرآن إلى الألمانية، وكيف أن قدراته المالية لم تسمح له بطبع أكثر من ألفي نسخة، وكيف أن الألمان تهافتوا عليها فنفدت في أيام قلائل وقادت العديد منهم إلى الإسلام.

ولقد أغرت هذه النتائج الطيبة داعيتنا ذاك بالقيام بجولة واسعة في البلدان الإسلامية لجمع التبرعات التي تمكنه من توسيع مشروعه وتنفيذ ترجمات لمعاني القرآن إلى أهم اللغات الحية في الغرب: الأسبانية والروسية والفرنسية.. إلخ.

إنها حلقة من بين عشرات الحلقات ومئاتها، على هذا

التحرك المتقابل لإيصال الصوت الإسلامي من قبل دعاة الإسلام، والبحث عنه، وقبوله، من قبل غير المسلمين، والحركة ماضية إلى أهدافها بإذن اللّه..

إننا لا نستطيع اليوم أن نخترق الغرب المتفوق ماديًّا بقوة السلاح.. ولكننا سنخترقه بقوة الفكر.. بالحقيقة الإسلامية المتوافقة بشكل معجز مع وجود الإنسان ومهمته في هذا العالم.. وعلينا من أجل تحقيق هذا الهدف العزيز أن نبذل كل ما في وسعنا لتوصيل القول إليهم وإغرائهم بالتحرك، والاقتراب.. لسماعه جيدًا.. للإصغاء إلى صوته المؤثر العميق..

وحينذاك نكون قد أبرأنا ذمتنا أمام اللّه سبحانه.. وإلّا فهو الحساب العسير..

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

صفات اللّـه سبحانه والحالة البشرية المثلى

يا سبحان اللّه!!

قلت في نفسي وأنا أتأمل في دلالة صفات اللّه سبحانه وأسمائه الحسنى.. الأُلوهية.. الربوبية.. الوحدانية.. الحاكمية.. العلم.. الخلق.. القدرة.. الحكمة.. العزة.. القوة.. الرحمة.. القهر.. الإرادة.. الإحاطة.. الحضور الأبدي الدائم الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم..

إن الانسان المسلم يجد نفسه إزاء إله واحد خالق عالم قدير حكيم رحيم عزيز قوي قاهر مريد محيط.. لا تأخذه سِنة ولا نوم..

فيطمئن إلى أنه يستند في توجهه إلى إله يمنحه، بأسمائه وصفاته تلك، الرضا والقناعة والاطمئنان والتوحّد واليقين.. تلك الحالة التي تنعكس على مكوناته العقلية والروحية والحسّية والوجدانية فتضعها في أكثر صيغها توحدًا وانسجامًا وتوافقًا، فيما يمكنها - بالتالي - من تقديم المزيد من العطاء وفق وتائره العليا.

لقد أريد للإنسان، بفضل من اللّه ومنّة، أن يتحقق بالقدر الذي يلائمه من هذه الصفات التي تبلغ مثلها الأعلى عند اللّه سبحانه.. وحينذاك ستغدو حياته ساحة حقة للمهمة

التي خلق من أجلها، وهي عبادة اللّه سبحانه، ليس بالمفهوم الطقوسي المحدود ولكن بالمنظور الحضاري للعبادة الإسلامية التي تجعل الأرض كلها مسجدًا كبيرًا، وتجعل كل ما يبنى فيها، ويخفق في جنباتها، ويتحقق في ساحاتها، عبادة يتقرب بها الإنسان إلى اللّه سبحانه.

فلو أن الإنسان - على سبيل المثال - تحقق بالقدر الذي يلائمه من العلم، والحكمة، والقوة، والرحمة، لأصبح - بالضرورة - الإنسان النموذج الذي تتوازن في مكوناته وفاعليته على السواء قيم العلم والحكمة والقوة والرحمة، فتمنحه ثمرتين: إحداهما الشخصية السوية المتوازنة والمتوحدة، والأخرى القدرة الفائقة على الإبداع والإنجاز.

والحالة نفسها تنسحب على الجماعات، فإن الأمة التي تملك القوّة وتضبطها بالحكمة، وتبلغ شأوًا بعيدًا في ميدان العلم ولكنها تحيطه بالرحمة، ستكون - بحق - الأمة الوسط.. الأمة المتوازنة التي تؤتي ثمارها في اثنتين: السعادة والسيادة.. ومِن ثَمَّ منح خيرها للبشرية جميعًا فيما يمكنها من أن تتعايش، ويَقبل أحدها الآخر، وتمضي عجلة الحياة الدنيا كما أراد اللّه سبحانه لها أن تكون: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتستحق ما وصفها اللّه به في كتابه

الكريم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ [آل عمران:١١٠]

إن مفتاح كل المشاكل في الحياة البشرية، الفردية والجماعية، والإجابة على كل سؤال، وتحقيق المطلوب في كل معضلة، إنما يتحقق في تنزيل صفات اللّه سبحانه على الخبرة البشرية، في مستوييها الفردي والجماعي، وبالنسبة التي تلائم الإنسان.. وحينذاك ستتحقق حركة تصاعدية إلى أعلى.. صوب الأفضل والأحسن..

فرديًّا عبر رحلة الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان.. وجماعيًّا عبر ما سمَّاه المفكر الفرنسي المسلم (رجاء غارودي) في كتابه (وعود الإسلام): « التسامي ».

وليس ثمة أمة في الأرض، غير الأمة الإسلامية، وليس ثـمـة إنسـان في العالـم غـير الإنسـان المسـلم، أعطيا هذه المفاتيح المدهشة للتحقق بالسوية العليا والتحرك صوب المثل الأعلى.

وبخلاف ذلك لنتخيّل كيف ستكون الحال لو أن مجموعة من الناس أو المواطنين عاشوا في بيئة يتنازع فيها الحاكمون السلطة وهم يملكون قُوًى متكافئة.. وينام فيها الحاكم أو يغيب حينًا بعد حين عن الرقابة الدائمة.. ويظلم فيها السلطان دون معايير عادلة، ويتساهل بأكثر مما يجب

فيطغى القوي على الضعيف، وتتعدّد فيها مصادر القيادة والتشريع فيتمزق الإنسان، ويعزل فيها الإله نفسه في السماء ويترك العالم للطواغيت.. إلخ؟!

كيف سيكون الحال؟!

* * *
* *
*

عصر التكاثر

قبل عشرين عامًا كتبت مقالًا أسميته (عصر الاختزال) نشر في كتاب (رؤية إسلامية في قضايا معاصرة).. وأريد الآن أن أتحدث عن (عصر التكاثر) إذ ليس ثمة تناقض بينهما على الإطلاق.. إنهما وجهان لعملة واحدة اسمها التعاسة.

اختزال في الإنسان وتكاثر في الأشياء..

اختزال في روح الإنسان، ووجدانه، وإحساسه، وإنسانيته، وتكاثر في عالم الأشياء.. وتطاول في العمران، وانفجار أسطوري في التقنيات.. ومع ذلك فالإنسان ليس سعيدًا.. بل إنه أخذ يفقد سعادته شيئًا فشيئًا.

إن الإنسان يضيع.. ويومًا بعد يوم يتسطَّح، ويفقد عمقه الروحي، وغناه الوجداني، ويقترب من عالم الأشياء فيصير وإياها حالة واحدة، تنمو وتتحرك وتتطاول، ولكنها تفقد أيما بعد ديني يمنح وجودها المعنى والمغزى.

تكاثر في الخدمات.. في المقتنيات.. في الحاجات الأساسية.. في اللعب.. في وسائل الترفيه.. في الدُّور والقصور.. في الأموال والممتلكات.. في السلاح ووسائل الدمار.. في العلوم والتقنيات.. ومع ذلك فالإنسان

المعاصر ليس سعيدًا وهو يحس أكثر فأكثر بتعاسته، وفقدانه سرّ طلاوة الحياة الضائع.. يومًا بعد يوم تحاصره الأشياء.. تضيّق الخناق عليه، وتعزله عن رفاقه وإخوانه. عن زوجته وأطفاله.. بل حتى عن نفسه، لكي ما تلبث أن تبني بين الأطراف سدًّا مصمتًا يصعب اختراقه.. وتمدّ حزمًا من الأسلاك الشائكة التي يستحيل معها العبور إلى الآخر..

حتى الأصوات المتعالية هنا وهناك تنحبس في حناجرها فلا يكاد يسمعها أحد.

الحصار الشيئي كالطوفان.. كقدر نازل من السماء.. يصعب على البشر الوقوف في وجهه، ومقاومته.. إنه فوق الطاقة.. لقد وضع الإنسان نفسه في معادلة صعبة.. حلقة مفرغة ليس إلى الخروج منها سبيل.

أتذكَّر إحدى مسرحيات الكاتب الطليعي الفرنسي (يونسكو)، حيث يجد البطل نفسه محاصرًا بالأشياء، وحيث يزداد هذا الحصار ضراوةً يومًا بعد يوم، فيعزل البطل عن كل ما حوله.. ينفيه من العالم.. حتى صراخه لا يكاد يستمع إليه أحد.. فالأشياء تملك القدرة ليس فقط على تغييب الإنسان، بل على تجريده من قدرته الصوتية كما يحدث في الأحلام والكوابيس..

أتذكر أيضًا (ليوبولد فايس) في (الطريق إلى مكة) ...

وهو يدين الحضارة الغربية في لهاثها المحموم وراء التكاثر بالأشياء، وينعى على الإنسان الغربي بؤسه وتعاسته، وفقدانه سرّ طلاوة الحياة الضائع.. « كنت أرى وجوههم متغضنة بأكثر مما يجب، وكنت ألمح جيدًا نظراتهم الزائغة.. إنهم ليسوا سعداء على الإطلاق.. وحينذاك رحت أتلو على زوجتي » (إلسا) سورة التكاثر: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ١ – ٨].. كنا نرتجف معًا دهشة وتأثرًا، ونحن نوغل في مضامين هذه السورة وفي تعبيرها المدهش عن مأساة الإنسان ».

إن المشكلة في أساسها، وقد أعلن الغرب حربه على الدين والغيب والروح والإيمان واليوم الآخر.. أنه رمى بثقله باتجاه الكم على حساب النوع.. مع الظاهر على حساب الباطن.. مع الدنيا على حساب الآخرة.. مع المصلحة والمنفعة على حساب القيم.. مع مطالب التكاثر بالأشياء على حساب خفقة الوجدان ورعشة الروح.

أين هي سعادة الإنسان في هذا الطوفان الشيئي؟ وكيف يستعيد الضائعون بُعدَهم الروحي المفقود؟

لقد أصبح سطح الحياة مهندَسًا بشكل يثير الدهشة، ولكن الأعماق خربة إلى حدّ يثير الرغبة في البكاء!!

❊ ❊ ❊
❊ ❊
❊

عصر الصخب.. عصر التلوّث

ما أكثر ما دخل الإنسان على إبداعية اللّه - سبحانه - في الخلق فأفسدها.. وعلى صنع اللّه المدهش في العالم فأصابه بالخلل والفوضى والاضطراب ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]

ومنذ سنوات بعيدة والحديث يدور حول انكسار في طبقة الأوزون قاد إلى احتباس حراري راح يتزايد طردًا بمرور الأيام، وراحت شعوب وأقاليم شتى تعاني من ويلاته.

ومنذ عقود بعيدة والحديث يدور حول الإشعاع الذّري وما تخلِّفه التجارب النووية من غبار قاتل، قد يفترس الكثير من الناس والجماعات، أو على الأقل يصيبهم بأمراض لم تعد تستوعبها حتى قواميس الطب وعلوم الصيدلة.

ومنذ زمن بعيد والحديث يدور حول الكميات الهائلة لليورانيوم المخصب الذي أنزل مطر السوء على الشعوب الضعيفة في حروبها غير المتكافئة مع المستكبرين والأقوياء.. وهي كميات كافية لإلحاق الأذى ليس بالإنسان وحده، وإنما بالزرع والضرع.. اغتيال بشع للحياة في مستوياتها كافة..

هذا على مستوى العالم.. فما الذي يحدث على مستوى المدن والأقاليم؟

إنه التلوّث والصخب الذي يمارس هو الآخر دوره في اغتيال الإنسان والحياة ولكن بصيغ أخرى.. إنه يفترس أعمارهم.. يأكل صحتهم وعافيتهم.. يلوّث بيئاتهم إلى حدِّ الاختناق فلا تغدو صالحة للحياة الآمنة المتوازنة النظيفة.. ويومًا بعد يوم تنزل سكين التحضّر المعكوس لكي تجعل الحياة خبرة أو تجربة صعبة لا تطاق..

وبمقارنة سريعة بين ما كانت عليه (المدن) زمن الصحة والعافية، وسلامة البيئة، والأمن المناخي، وبين ما أصبحت عليه عبر العقود الأخيرة، يمكن أن نضع أيدينا على حجم المأساة التي يعانيها السكان وهم يدلفون إلى القرن الحادي والعشرين والتي ستزداد ويلًا وثبورًا مع دوران الأيام والسنين.

الصخب والتلوث يلاحقان الناس في المدن المكتظة.. أينما ذهبوا وحيثما وضعوا خطاهم: أبواق السيارات.. أزيز الطائرات.. هدير وسائط النقل.. هتاف الاحتفالات والخطابات العامة والمسيرات الكبرى.. زعيق الراديوات والتليفزيونات.. صراخ المغنين والمغنيات..

فإذا ما دخلنا الدور لكي نستجم فيها قليلًا، استقبلتنا

أصوات الأجهزة الكهربائية: المراوح، والمبردات، والإيركوندشنات والثلاجات والمجمدات، وروائح المبيدات الكيماوية التي تخترق الرئة وتكتم الأنفاس..

أين المفر؟ وإلى أين نذهب لكي نلتقط أنفاسنا ونريح جملتنا العصبية من التوتر والدمار؟

أغادر البيت - أحيانًا - هاربًا من زحمة العمل لكي أرتاح قليلًا عبر جولة تخط في الشوارع القريبة، فيرشقني دخان السيارات والمولدات الكهربائية التي تنفث السمّ الأسود.. ويحاصرني الحرّ والغبار، وتخترق الأصوات الحادة المنبعثة من كل مكان جملتي العصبية، فأضطر للعودة من حيث أتيت.. متعبًا.. مرهقًا.. متوتر الأعصاب.. مكدودًا..

أين الهواء الرقيق والنسيم العذب والسماء الزرقاء الصافية والجو الخالي من الغبار والدخان؟ أين البيئة التي لا يعلو فيها صوت؟

لقد ذهبت تلك الأيام إلى غير رجعة..

ما الذي سيحدث عبر القرون، وربما العقود القادمة؟ هل ستكون الحياة ممكنة ولو في حدودها الدنيا؟.

* * *
* *
*

قيم من خطبة الوداع

عندما حان موعدُ الحج من العام العاشر للهجرة أعلن الرسول ﷺ أنه سيحجُ بنفسه في الناس ذلك الموسم وأمر بالتجهز للذهاب إلى مكة. ثم ما لبث أن غادر المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة. وانهال المسلمون على بيت اللّه من كلّ مكان؛ لكي يشهدوا أول حج على التقاليد الإسلامية الخالصة التي لا دخل فيها من طقوسٍ وثنيةٍ، وليلتقوا برسولهم الكريم ﷺ ويقتبسوا عنه مزيدًا من التعاليم.

وبدأت مراسيمُ الحج فانطلق آلاف المسلمين، القدماء والجدد، وراء نبيهم ومعلمهم وهو يريهم مناسكهم ويعلمُهم سننَ حَجِّهم. ورأى أن يفيد من فرصة التجمع الكبير هذه فيلقي في أتباعه خطابًا جامعًا يؤكد فيه القيم والتعاليمَ التي بُعث من أجلها، وكأنه كان يدركُ، بإحساسه العميق أن هذه هي آخرُ فرصةٍ يلتقي فيها بحشد كبير من أتباعه كهذا الذي يلتقي به اليوم. فوقف بين أيديهم في عرفات وشفقُ المغيب يلقي على جبهته مزيدًا من النور والمهابة والجلال، وراح يلقي كلماته التي سميت فيما بعد بخطبة الوداع، ومن ورائه رجل جهوريُّ الصوت يصرخ بكلمات الرسول ﷺ ليُسْمِعَها ألوف الحجيج..

« أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس إن دماءَكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستَلْقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم - وقد بلغتُ - فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربًا موضوع ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى اللَّه أنه لا ربا، وإن ربا عباسَ بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كلَّ دمٍ كان في الجاهلية موضوع، وأن أوَّل دمائكم أضعُ دمَ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - الذي قتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية..

أيها الناس إن الشيطانَ قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه أبدًا، ولكنه يطمع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٧]..

أيها الناس إن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا. واستوصوا بهن خيرًا فإنهن عندكم عوانٍ (أسيرات) لا يملكْنَ لأنفسهن شيئًا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة اللَّه.. فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا أمرًا بينًا: كتاب اللَّه وسنةَ نبيه. أيها الناس اسمعوا

قولي واعقلوه تعْلُمنّ إن كل مسلم أخٌ للمسلم، وإن المسلمين أخوةٌ، فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلِمُنّ أنفسكم. اللَّهم هل بلغت؟ »[١].

أجابه المسلمون جميعًا: اللَّهم نعم، فقال « اللَّهم اشهد »..
وبعد ذلك بقليل قال الرسول ﷺ للوفود المحتشدةِ حوله عند جمرةِ العقبة ما يُشعر بحلول الأجل القريب: « خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحجّ بعد عامي هذا »[٢].. ولم يحج بعد عامه ذاك فعلًا.. وصدقت كلماتُه..

إنها خطبةٌ موجزة.. خطبةَ الوداع تلك.. ولكنها تضمنت الكثير من القيم والمبادئ والممارسات التي جاء الإسلام لكي يزرعها في العالم فيحيي بها مواته، ويفجر العيونَ في قفره، ويحيل صحراءه المجدبة إلى حديقةٍ غَنَّاء يحيا في ظلالها الإنسان سعيدًا متوحدًا مطمئنًا..

إن الرسولَ المعلمَ ﷺ يعلن ها هنا حمايةَ العقيدة الجديدة لدم المسلم ومالهِ. يضع حولهما سياجًا من الحرمة والوقاية إلى يوم الحساب.. إنه الحق العامّ الذي لن يضيع في حمايته أحد من الناس.. ومع حماية حقوق النفس والأموال مجابهةٌ صريحة للظلم الذي هو نقيضُ الحق.. وهل ثمة من ظلم

---

(١) رواه الترمذي والحاكم.
(٢) رواه النسائي والطبراني.

كالربا والثأر مما غطى على جاهلية العرب من أقصاها إلى أقصاها.. ليس ثمة ربًا ولا ثاراتٌ بعد اليوم. وإنه ﷺ يبدأ كعادة الأنبياء والشهداء والصديقين بنفسه وأقربائه أولًا لكي يعطي الإشارة بالأسوة.. وليس بمجرد نظرياتٍ تطرح وكلماتٍ تقال..

لقد جاء الإسلام لكي يستأصل عبادةَ الشيطان بصيغها الفاضحةِ المنكرةِ ويقضي على سطوته وهيمنتهِ على مقدرات الإنسان وسلوكه ومصيره.. ولكن تبقى ثغرات.. ومساربُ.. صغيرةٌ هنا وهناك، قد تعود لكي يتسلل منها مرة أخرى.. ويبدأ نشاطه من جديد فرسول اللَّه ﷺ يحذر المسلمين من ألا يدعوا هذه الفرصة لخصمهم الأبدي.. إبليس.. وأن يقطعوا الطريق عليه..

وثمة دعوةٌ مترعةٌ بالشفافية والرحمة والمحبة لحماية حق المرأة.. ووضعها في مكانها الكريم.. « **إنهن عندكم عوان لا يملِكْن لأنفسهن شيئًا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة اللَّه** »[١]!!

وثمة تأكيدٌ على ميراث النبوة العظيم الذي سيتركه فيهم فيمكنهم من مواصلة الحياة الوضيئة التي نقلهم إليها.. كتاب اللَّه وسنة رسوله.. شرط أن يعرفوا كيف يكون الالتزام.. والاعتصام.. وإلا فإنه الضياع..

---

(١) سبق تخريجه.

وفي ختام خطبته المترعة بالإنسانية تلك يعلن الرسولُ ﷺ أخوَّة المسلمين في كل زمان ومكان.. وتلك هي العلامةُ المميزةُ.. الفارقةُ.. للمجتمع الذي بعثه وصنعه الإسلام من قلب التمزق والتناحر والصراع، وتلك هي إرادةُ اللّه ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الأنفال:٦٣].. وصدق اللّه العظيم..

* * *
* *
*

وتبقى معطيات هذا الدين هي الحكم

ورد في إحدى الصحف خبرٌ عن دعوة أحد كبار القضاة الإنكليز إلى ضرورة العودة إلى حكم الإعدام لمجابهة موجة الجرائم المتزايدة في بريطانيا والتي يذهب ضحيتها أناسٌ أبرياء لا لشيء إلا لأن المجرم يمارس جرمه وهو مطمئن إلى أن حبل المشنقة لن يلتف حول عنقه.

وقال الرجل إن تنفيذ حكم الإعدام بقلة من هؤلاء سوف يحدّ من الجريمة إلى مدًى كبير ولن تُضطر الأجهزة القضائية إلى تنفيذ المزيد من أحكام الإعدام.

تلك هي القضية التي غفل عنها المشرع الوضعي وأكدتها الأديان.. أليست هذه المؤشرات التي تصدر عن الرجل تمثل تعبيرًا واضحًا عن مضمون الآية القرآنية الكريمة ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتلك هي مأساة الفكر الوضعي، في نظمه وممارساته وتشريعاته ومذاهبه..إنه يدور دائمًا في الحلقة المفرغة ويعود لكي يبدأ من جديد.. ويمارس الكثير الكثير من تجارب الخطإ والصواب.. يَضيعُ فيها الوقت وتبدد الجهود والطاقات وتهدر الحقوق والواجبات وتزهق أرواح بريئة ويداس على زهرات بيضاء.. لكي ما يلبث أن يرجع ثانية

إلى هذا المنطلق أو ذاك ممارسًا مأساة الخطَأ والصواب..

إن هندسة العبيد ذات المنطلقات النسبية والرؤية المحدودة والعلم القلق لا يمكن إلّا أن تتضمن الكثير من الأخطاء والفجوات التي قد تهز معطياتها وتصيبها بالشروخ والكسور وقد تسقطها في يوم قريب أو بعيد..

ولكن هندسة اللّه سبحانه - إذا صح التعبير - شيء آخر تمامًا؛ لأنها تصدر عن علم مطلق ورؤية شمولية ومنطلقات ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها..

إنه سبحانه خالق الإنسان، وهو أعلم بمن خلق.. وصانع الكون فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء..

إن معطيات الوحي هي صيغ نهائية تنطبق بانسجام وتوافق هندسي باهر مع فطرة الإنسان وتكوينه وعلاقاته الاجتماعية المتشابكة؛ لأنها من صنع اللّه الذي أتقن كل شيء..

فلماذا نتجاوز هذه المنحة الكبيرة؟ ونسعى كالأطفال الذين يرفضون نصائح الكبار في ألّا يسيروا من هنا ويركضوا إلى هناك، لكي ما نلبث أن نقع في الحفر العميقة، فنتهشم ونغدو حطامًا؟

ومع ذلك فنحن لا نتعلم، ونعود ثانية لكي نجري على غير هُدًى ونسقط مراتٍ ومرات فنتحطم ونغدو مزقًا وأشتاتًا.. ولكننا لا نتعلم..

ها هنا بصدد هذا المبدأ القرآني نجد كيف أن القِصاص يمثل ضرورةً محتومةً لاستمرار الحياة وضمان صيرورتها وحماية حق الإنسان من العدوان والتبديد..

أن تحكم على قاتل بالإعدام فكأنك عصمت دماء عشرات من الناس، وأن تلف حبل المشنقة على هذا العنق أو ذاك فكأنك حرَّرت أعناق ألوف الناس وعصمتها من الخوف والقتل والعدوان..

إن قتل إنسان واحد عمدًا هو قتلٌ للناس جميعًا، وحمايته من القتل هو حمايةٌ لهم جميعًا.. ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].

وهكذا فإن عدم أخذِ القاتل بجرمه.. يعد إسهامًا في قتل البشرية.. والقصاص منه حياةٌ للبشرية.

إنها المعادلة الإلهيةُ التي لن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها والتي تمنحنا الرقم المطلق في صوابه إزاء أية تجربةٍ من ممارسات الإنسان..

ومن قبل كان الغربيون قد أخذوا على الإسلام مبدأ إباحة الطلاق.. وجهوا إليه أشد النقد وعنفوه أشد التعنيف واتهموه بكونه موقفًا لا إنسانيًا.. ومن وراء الغربيين أتباعُهم هنا في

الشرق اندفعوا في طريق النقد والتعنيف على غير هُدًى.. ففاقوا في هجماتهم أساتذتهم هناك..

ثم تبين للغربيين أخيرًا بعد ضغوط التجربة البشرية نفسها، وبعدما جرعهم إياه تشبثهم بالرباط الأبدي في الحياة الزوجية من محن وويلات وفضائح ومصائب وآلام.. تبين لهم كم أن الطلاق ضروري في معادلات هذه التجربة.. فها هو البرلمان الإيطالي يصوِّت في أواخر الستينيات من القرن العشرين على إباحة الطلاق، بعد كفاح طويل، فترتفع أيدي الأكثرية مؤيدةً المشروع، وتعتبره الأحزابُ التقدمية كسبًا كبيرًا لصالح الإنسان!!

ويعود الضالون إلى مقولات الإسلام من حيث لا يشعرون..

وتبقى معطيات هذا الدين هي الحَكَم الفصل في كل تجربة بشرية.. أمس.. واليوم.. وغدًا..

* * *
* *
*

الخلْق.. أولًا

لو تأمَّلنا الفارق بين صنع اللَّه سبحانه وصناعة العبيد لوجدناه فارقًا في النوع وليس في الدرجة.. فارقًا حاسمًا لا ينطوي على أية مقاربة بين قدرات الخالق والمخاليق..

إن كل ما يفعله هؤلاء هو أنهم يلجأون إلى المادة الأساس، أو الأولويات التي وضعها اللَّه بين أيديهم، فيبدِّلون في نسبها وأحجامها، أو يسوّون نتوءاتها وتعاريجها لكي تكون أكثر ملاءمة لوضعهم البشري. أو أنهم يكشفون عنها النقاب بينما هي موجودة ابتداءً.. حاضرة، مركوزة في فطرة الكون والناس والأشياء..

إن كل ما فعله هؤلاء في حقول العلوم الصرفة أنهم كشفوا النقاب عن السنن والنواميس التي وضعها اللَّه - سبحانه - في تكوين العالم.. وفي العلوم التطبيقية وظَّفوا ما أعطاهم اللَّه إياه من سنن ومواد خام.

لم يستطع أي واحد منهم، ولن يستطيع، أن يخلق خلية أو حجيرة واحدة من العدم.. لن يستطيع أن يهب الحياة للجمادات ويمنحها الحركة.. إنهم يجيئون إلى عالمٍ أحكمَ اللَّه - سبحانه - صُنعه، وأغدق على خلقه بنعمه، وخيراته.. فهم لا يفعلون بأكثر من التغيير والتبديل في النسب والأبعاد،

ولا يصنعون بأكثر من أن يكشفوا النقاب عن السنن التي شاءت إرادة اللَّه سبحانه أن تكون مغطّاة من أجل تحفيز الإنسان على البحث والكشف والتنقيب والفاعلية والتحضّر.

إن الأشياء الكبيرة يصنعها اللَّه سبحانه.. والبشر لا ينجزون سوى الأشياء الصغيرة، ولا يقومون - إذا صحّ التعبير - سوى بالأمور التكميلية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا .. ﴾ [البقرة: ٢٩]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠١]

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [الأنبياء:٣٣].

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١].

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح: ١٥].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ [يس: ٧١].

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥].

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٧]..

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]..

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾
[فاطر: ٤٠].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾
[الواقعة: ٥٨، ٥٩].

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾
[النحل: ١٧].

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

على مدى خمسين عامًا والعلماء السوفييت - بأمر من الدولة - يعملون في مختبراتهم ومعاملهم، لتخليق الحياة من المادة الميتة.. والهدف واضح.. أن تتأكد علميًّا معطيات المادية الديالكتيكية التي أصبحت عقيدة الحزب الشيوعي والدولة السوفيتية والتي ألغت اللَّه سبحانه من الصيرورة الكونية وجعلت المادة تخلّق نفسها بنفسها وفق وهم المتغيرات الكمية التي تتحول بقدرة قادر إلى متغيرات نوعية!!

خمسون عامًا أعلن العلماء في نهايتها عن عجزهم المطلق عن تحقيق المطلوب وألقوا السلاح أمام معجزة الحياة..

في إنكلترا عام (١٩٨٢م) قام البروفيسور البريطاني المعروف (ألفريد هويل) بمعاونة أستاذ هندي، ببحث مجهد استغرق السنين الطوال عن احتمالات تخلّق الحياة من الوحل الأولى (Primeval Soup).

كان الاحتمال القائم يومذاك هو بنسبة (١) إلى عشرة، فإذا بالباحثينِ المذكورين يتوصلان بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة إلى أن الاحتمال لا يزيد بحال عن (١: ١٠: ٤٠,٠٠٠)، أي واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر، مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت عن طريق الصدفة البحتة، وأنه لا بدّ من وجود عقل مُدبِّر يغير ويبدل لهدف معين وغاية محددة. وعلى الرغم من اعتراف الباحثينِ الصريح بإلحادهما، فإنهما لم يجدا أمامهما مفرًّا من أن يضعا الفصل الأخير من كتابهما (Evolution From Space) تحت عنوان (الله - God).

العبرة بالخلق الأول من الموات كما أكد عليها القرآن

الكريم، وبإعادة الحياة للموات مرة أخرى كما أكد القرآن الكريم أيضًا، وليس ببناء تشكيلات وإقامة منظومات إبداعية من المادة الحية التي لم يكن لأحد من البشر أي دور في بعثها على الإطلاق: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

* * *
* *
*

وهْم التكنولوجيا.. وهم القوة

في طريقي اليومي إلى الجامعة كنت ألمح بدالة البريد المركزية وأجهزة الإرسال والاستقبال المتقدمة تقنيًّا.. إنها تبدو من بعد قطعًا مركومة من الحديد.. لعَب أطفال يتلهَّون بها، ويتصل بعضهم ببعض، كما كنا نفعل أيام الطفولة بعلب الكبريت..

ماذا لو نظر ناظر من الملكوت الأعلى إلى كل تكنولوجيا العالم؟ إلى كل قواه الذرية والصناعية .. ماذا هو راءٍ؟! إنه عبث صبيان لا يكاد يقارن بالخلق الكوني الكبير حيث تصير المسافة بين نجم ونجم مستحيلة على أشد المركبات الفضائية تقدُّمًا وتعقيدًا.. وحيث تصير شهقة واحدة من جوف الشمس وحدها تعادل ملايين القنابل الذرية والهيدروجينية التي تخيف بها الأمم القوية بعضها بعضًا.. وحيث يصير الثقب الأسود قديرًا على امتصاص الأرض ومن عليها في لحظات لا تكاد تقاس.. وحيث يصير الانفجار الكوني الكبير في بدء التشكُّل طاقة عملاقة تغدو كل الانفجارات الأخرى إزاءها عبث صبيان!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ.. ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٩٩]..

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ [الصافات: ١١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]..

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ

أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠].

﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

ولن ينقذ تكنولوجيا القوة المعاصرة من وهمها وغرورها وادعاءاتها.. لن ينقذ القائمين عليها من الاندفاع الأعمى وراء إغراءاتها إلّا أن تأوي إلى ساحة الإيمان وتنضبط بضوابطه..

واقعة النبي سليمان عليه السلام في كتاب اللّه تعطينا صورة عن العلم والقوة اللتين تضبطهما الحكمة، وتمنعهما من الانجراف بعيدًا لكي تعملا بمعزل عن القيم الدينية والخلقية والإنسانية، ولكي تمارسا واحدة من أبشع عمليات الاغتيال في التاريخ البشري.

القوة والحكمة في كفتي ميزان.. ولحكمة يريدها اللّه

سبحانه منح سليمان ﷺ قوى تفوق التصوّر لكنه عرف كيف يشكمها بحكمته..

وبخلاف هذا رأينا أمريكا في أخريات الحرب العالمية الثانية، لا تجد أيما مانع من إسقاط قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين، حيث أبيد - في لحظات - مئات الآلاف، وظلت آلاف أخرى تعاني من ويلات الغبار الذري التي لا ترحم..

إن البشرية تتطلع اليوم إلى مستقبل تقني مؤمن يزيح تكنولوجيا الغدر والدمار والعرقية والأنانية، ويحمي منظومة القيم الدينية والخلقية والإنسانية.. ويعيد للإنسان الخائف المذعور أمنه المفقود..

* * *
* *
*

الترافيك لايت الكوني

في واحدة من أكبر المدن الآسيوية: كوالالامبور عاصمة ماليزيا، أحدث عطل موقوت في شبكة الترافيك لايت لم يتجاوز الدقائق المعدودات، إرباكًا هائلًا في المواصلات، وبالتالي في المسار اليومي للأنشطة المزدحمة المتشعبة كافة..

فماذا لو حدث عطل كهذا في مسارات النجوم والسدم والمجرات عبر الكون العريض؟ ما الذي سيتمخض عنه فيما ينذر بالويل الذي لا يحيط بأبعاده أشد الناس قوة في الخيال؟

ملايين السنين، بالحسابات الضوئية، وحركة الكواكب والأقمار والنجوم والسدم والمجرات، تمضي في مساراتها المرسومة دون أن تنحرف قيد أنملة عما أريد لها أن تمضي فيه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠]

إنها يد اللّه سبحانه، القديرة، المريدة، الفاعلة، من يمسك بالكون ويحميه من الفوضى والتسيّب والارتطام والإجهاز على كل شيء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ

وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

ولطالما حدثنا كتاب اللّه في مواقع عديدة من آياته البيّنات عن هذا الإحكام الكوني، ولفت أنظارنا إلى المشيئة المطلقة التي تقف وراءه : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢] ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

عطب في المكائن والآلات الكبيرة يمكن السيطرة عليه.. عطل في شبكة الترافيك يمكن إصلاحه وإعادة الأمور إلى نصابها.. لكن العطب الكوني، إذا قدّر له أن يقع فلن يكون بمقدور قوة في العالم أن تتداركه.. وستقف أقوى دولة في الدنيا عاجزة يائسة مستسلمة أمام تحدّيه القاهر المخيف.

فكيف بعملية بناء الكون نفسه؟ أية قدرة مطلقة تمكنت من تصميمه وإنجازه؟ ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]

هذا هو الجانب الآخر من المشهد الكبير الذي طالما

لفت القرآن الكريم أنظارنا إليه: خلق الكون!

إننا إذن أمام معجزتين كبيرتين: خلق الكون، والإمساك بنظامه المحكم.. وليس ثمة تفسير للمعجزتين سوى وجود اللَّه سبحانه الذي لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، والذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.. وكل التفاسير المادية الفاجرة، الكافرة، التي سعت ولا تزال إلى إبعاد الوجود الإلهي عن الخلق والصيرورة الكونيتين، لا تعدو أن تكون (لعب عيال) وعبث صبيان، وتخبط أغبياء، و (سخفًا طائشًا) إذا استعرنا عبارة (سوليفان) في (حدود العلم).. وهي جميعًا تدعو للسخرية والاحتقار، ولا تنطوي على أي قدر من الإقناع لكل من يملك ذرة من بصيرة أو عقل.

ومن بين مئات الشواهد الكونية وألوفها على هذا الضبط والإحكام اللذين لن يقدر عليهما سوى اللَّه الخلَّاق العلَّام القدير سبحانه، يمكن أن نقف لحظات عند شاهد واحد: فماذا لو انحرفت الشمس عن مسارها قليلًا؟ قليلًا جدًّا، فاقتربت من الأرض أو ابتعدت عنها؟

في الحالة الأولى سيحترق العالم.. وفي الثانية سيتجمد.. وفي الحالتين لن يكون بمقدور الحياة أن تستمر أيامًا وربما ساعات فحسب.

إن هذا المصباح الهائل، والفرن الذَّري الكبير، وضع

في مكانه تمامًا من الكرة الأرضية، ووفق حسابات مذهلة لن يحيط بها علمًا سوى اللّه سبحانه.. إنه يمنحنا النور.. والحرارة.. ويعين، مع ثاني أوكسيد الكربون والكلوروفيل الأخضر، على إعداد الطعام الذي نحيا عليه..

مرة أخرى.. ماذا لو حدث الاختلال فمنع عنا النور أو الدفء أو مطالب إعداد الطعام؟ هل بمقدور الحياة البشرية أن تواصل البقاء؟

والأمر نفسه بالنسبة لمقدار الجاذبية في الكرة الأرضية التي نعيش عليها.. ماذا لو كانت (النسبة) أكثر قليلًا أو أدنى قليلًا؟

في الحالة الأولى ستصبح حركتنا وتنقلاتنا من مكان إلى مكان على قدر كبير من البطء يعرقل نشاطنا اليومي.. والحضاري بالتالي.. وفي الحالة الثانية ستغدو على قدر من الخفة لا يسمح لنا بالاستقرار على الأرض وممارسة نشاطنا عليها باليسر والسهولة المعهودتين..أي نظام هذا وأي إحكام؟ وأين هو موضع الصدفة وغياب الغائية في شبكة الخلق المعجزة هذه؟

مجرد شاهدين فحسب، فكيف الحال لو استعرضنا مئات الشواهد الأخرى؟!

* * *

الصراط

عبر كل موقف يتبين لكل ذي عقل صدقُ مقولات كتاب اللَّه وسنةِ نبيه، وحجتها وإحاطتها، وقدرتها على الامتداد في الزمن والمكان لكي تغطي كلَّ حالة وتعطي جوابها لكل معضلة وتستجيب لكل نداء..

إنها كلماتُ اللَّه.. تصدر عن علمه المطلق الذي خلق السموات والأرض وبعث الحياة والإنسان وأحاط بها جميعًا.. فهي تجيء لكي تطابق حاجات النفس والمجتمع في كل زمان ومكان، ولكي تقدم الصيغ المثلى لكل موقف.. وما عداها لا يعدو أن يكون مجرد محاولات تخطئ كثيرًا وتصيب قليلا.. وهي حتى في حالة إصابتها لا تقدر على تقديم الصيغة الأكثر كمالًا.. وتبقى من ثم تحمل عجزها وقصورها ونسبيتها وتقطعها وعدم قدرتها على الامتداد..

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح كامل: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]..

وتلك هي مهمة الدين في هذه الحياة.. أن يمنح الإنسان الصراطَ المستقيمَ وأن يشيرَ إليه بكلتا يديه ويسلط عليه

الأضواءَ من أجل تمكين الإنسانِ من الوصول إلى أهدافه من أقرب طريق وأيسر طريق.. ذلك أنه طريق الوفاق مع نواميس الطبيعة وقوانين العالم وسنن الكون.. والوفاق يمنح الإنسان قدرة أكبر على الفعل والاجتياز والتركيز واختصار حيثيات الزمن والمكان.. والانطلاق إلى الأهداف الكبيرة بالعزم الذي تمنحه العقيدة والطاقة التي يبعثها هذا الانسجام والتناغم مع قوى الوجود على امتداده الفسيح..

ذلك هو الصراطُ المستقيمُ الموصولُ باللّه.. الممتد بين الأرض والسماء.. بين الانسان والكون.. وليس بعد هذا الصراط سوى السبل البشرية النسبية القاصرة، القلقة، المهزوزة التي لن تصل بالإنسان إلى أهدافه المرتجاة.. والتي بسبب من عجزها وارتجاليتها تحدث دومًا انشقاقًا بين قدرات الإنسان ومطامحه وبين سنن العالم ونواميس الكون والوجود..حيث يؤول الأمر إلى ارتطام محزنٍ بين الطرفين ويؤدي إلى تفتتِ الطاقات، وهدر الإمكانيات وتدميرها، وصد الإنسان عن تحقيق توحُّده وانسجامه وقدرته على الفعل والإنجاز والعطاء..

وما أكثر ما تفرقت السبل بالأمم والجماعات والشعوب، وما أكثر ما قاد هذا التفرق إلى سفكِ أنهار من الدماء وتجريع البشرية بحرًا من الدموع والمتاعب والمنغصات والآلام..

ولماذا هذا كلُّه والطريقُ واضحٌ.. بيّنٌ.. هناك.. يتمثل بصراط اللَّه المستقيم؟

ويقينًا فإن اليوم الذي ستطبق فيه التجربةُ المرة على أعناق بني آدم وترغمهم على أن يرجعوا إلى الصراط سيجيء.. يقينًا سيجيء..

فمن خلال التجربة التي تكشف الزيفَ من الحقيقةِ.. وتفرز الذهبَ من الترابِ سيتبين صدقُ مقولات القرآن.. وسينضوي إليها الإنسان المتعبُ، الممزقُ، المكدود في يوم قريب أو بعيد.. وصدق اللَّه العظيم القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]

لقد ظهر الفساد في البّر والبحر بما كسبت أيدي الناس عبر تاريخهم المترع بالمرارة والشقاء والتعاسةِ والأحزان.. ليذيقَهم اللَّهُ الثمار المرة لبعض الذي عملوا لعلهم يرجعون..

وسيرجعون يقينًا.. لأنهم لن يجدوا غير الإسلام من يعصمهم من الغرق في بحر الفسادِ الكبير، وينقذُهم من خضمّه المخيف العميق..

* * *
* *
*

مسؤولية أعلام المسلمين تجاه أبناء أمتهم

إن مسؤولية أعلام المسلمين تجاه أبناء أمتهم ليست خيارًا، ولكنها أمر ملزم وأمانة تطوّق أعناقهم تجاه اللَّه سبحانه. فكلنا راعٍ وكلنا مسؤول عن رعيته، كما يعلمنا رسول اللَّه ﷺ، وهذه المسؤولية، بما أنها قضية إنسانية، وليست نشاطًا علميًّا صرفًا، فهي بالتالي لا تقاس بالمسطرة والفرجال؛ لأنها تستعصي على القياس، وتكتب بصيغة وصفات جاهزة كما يفعل الأطباء مع مرضاهم، لأن التعامل معها ليس سهلًا بسيطًا، ولكنه نشاط معقد ينطوي على حشود من المفردات.

ويبقى مفتاح الأمر كله، أن هذه المسؤولية تتشكَّل في ضوء اللحظة التاريخية ومطالبها.. وهي مسألة كثيرًا ما غفلنا عنها، ونتج عن هذه الغفلة هدر للطاقات وضياع للجهود، ووضع للأشياء في غير مواضعها. ذلك أن متطلبات العقد الراهن من القرن الحادي والعشرين هي غيرها في عقد سابق أو عقد لاحق.. ومتطلبات النصف الثاني من القرن الماضي هي غيرها في النصف الأول من القرن الجديد. وأحرى بالمفكر المسلم أن يصغي جيدًا لنداء اللحظة التاريخية من أجل أن يرتب الأولويات في التعامل مع مقتضياتها في ضوء الثوابت الإسلامية.

وهذا يرتبط - ولا شك بمسألة المنهج أو غيابه في مساحات واسعة من أنشطتنا الفكرية.

فلو أننا بدأنا أوّلًا بتحديد الأولويات، بوضع سلّم للأهم على المهم على الأقلّ أهمية، على غير ذي الجدوى، ثم قمنا بتوزيع الجهود والكفاءات والأنشطة الفكرية بما يتناسب وهذه الأولوّيات، فإننا نكون قد أدّينا الأمانة وحملنا المسؤولية بصيغة أكثر مقاربة للمطلوب، والمطلوب هو التحقّق بأعلى وتائر الفاعلية والكفاءة في المعطيات والإبداع والإضافة النوعية والمعالجات البكر التي تكتشف وتضيف وتضيء وتلاحق الظلمات وتتجاوز مظان التكرار والسرف والهدر في الطاقة.

إن مسؤولية أعلام المسلمين اليوم يمكن أن تتمركز في الوعي بالمنهج، في التعاون الإيجابي المرسوم لتحديد مطالب اللحظة التاريخية، في التقدم لاحتلال المواقع القيادية في المجتمع والأخذ بيد الجماعات صوب الأحسن والأفضل.

إن النشاط الفكري، أو الدعوي، أو الثقافي بعامة، للعَلَم أو المفكر أو الأديب المسلم يجب ألّا يكون ارتجالًا لئلا يقود إلى إضافات كمية في هذا الميدان أو ذاك، قد تزيد العبء، وتسدّ قنوات الحركة إلى الأمام، وتعرقل المسيرة.. وإنما

وعيًا بالأكثر إلحاحًا من المسائل التي تتطلب المعالجة، ونهوضًا جادًّا لتنفيذ مقتضياتها. إن واحدًا من أخطر أسباب تأخرنا، أو انخفاض وتائر معطياتنا على الأقل، يكمن في غياب هذا الوعي.

بعد ذلك يمكن أن يتحدّد اتجاه الاهتمام وحجم الجهد المطلوب لتغطيته سواء في السياق المعرفي أو الدعوي أو الحضاري..

وعلى سبيل المثال، فإن أولويات اللحظة التاريخية قد تتطلب تكثيف الجهود باتجاه معالجات جادة في الفقه الحضاري، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة، أو تحديد المنهج، أو ترشيد النشاط الدعوي، أو إصلاح البرامج التربوية. وفي سياق كل حلقة من هذه الحلقات تكمن الحاجة إلى إعادة ترتيب المفردات. ففي الفقه الحضاري مثلًا يبرز السؤال التالي من بين أسئلة عديدة أخرى: أيهما أكثر إلحاحًا.. أن نسعى لبلورة مشروع حضاري خاص بنا كأمة مسلمة، ثم ندخل بعد ذلك معترك ما يسمى بجدل أو حوار الحضارات، أم أن علينا أن نستهدي بالجدل والحوار لصياغة أكثر سلامة لمشروعنا الحضاري؟

في دائرة النشاط الدعوي، هل يتحتّم أن ننشئ أجيالًا من الدعاة تملك إلمامًا كافيًا بالعلوم الشرعية دونما أي قدر من

المتابعة في حلقات العلوم الإنسانية، أم نجعلهم يتوجّهون بالكلية إلى هذه الأخيرة بسبب النقص الملحوظ لدى الإسلاميين في التخصّصات الإنسانية؟ أم أن الأولوية يجب أن تعطى للتحقّق بقدر من الوفاق بين المعرفتين الشرعية والإنسانية رغم ضيق المساحة الزمنية لهذا التحقق؟

وفي دائرة أسلمة المعرفة هل تحتّم أولويات العمل التركيز على منهج العمل، أم المضي معه وبموازاته لتنفيذ المحاولة على هذا الحقل أو ذاك؟ ثم ما هي الحقول الأكثر إلحاحًا في تنفيذ المحاولة، هل هي الأدب، أم الإعلام، أم التاريخ، أم الاقتصاد، أم الإدارة، أم العلوم السلوكية، أم الصيرفة.. إلخ.

وفي ضوء هذا كله تبدو مسؤولية أعلام المسلمين تجاه أمتهم، في تجاوز التكرار والاجترار والتقليد والإضافات الكمية، والانفصال عن مطالب اللحظة التاريخية، وإقامة جدران سميكة إزاء مقتضيات العصر. والتحوّل بدلًا من ذلك كله إلى مواقع الإبداع والإحسان والإضافات النوعية، والتعامل مع بؤرة الزمن لا بعيدًا عنها، والاستجابة لتحديات العصر..

وبدون هذا الوعي، فلن تفعل مئات الكتب التي تؤلف، والمقالات التي تنشر، والمحاضرات التي تلقى، والجهود

التربوية والدعوية التي تمارس بأكثر من أن تمضي بأبناء الأمة خطوات ضيقة محدودة فحسب، في عالم لا يتفوق فيه سوى ذوي الخطوات الكبيرة التي تختزل، وهي تقطع العالم، حيثيات الزمن والمكان..

* * *
* *
*

الأغبياء

كان رأيي دائمًا أن الملحد هو غبي بالضرورة، وكأن لسان حاله يقول: أنا ملحد إذن أنا غبي! ذلك لأنه لا يملك القدرة على إدراك عظمة الخلق ودقته وضبطه وإعجازه.. أو أنه - في أقل تقدير - لا يريد أن يُعمل عقلَه في الوجود الكوني من حوله والذي ينطق صباح مساء بوجود الخالق سبحانه، وتوحّده جلَّ في علاه.. قليل من إعمال العقل يقوده بالضرورة إلى المطلوب، والمطلوب هو الإيمان باللَّه الواحد سبحانه من خلال معاينة إبداعيته في الكون والعالم والطبيعة والحياة والإنسان.

ولطالما دعانا القرآن الكريم في مساحات واسعة من آياته وسوره إلى الدخول من هذه البوابة الكبرى للتحقق باليقين والإيمان؛ إذ ما من منظومة في الطبيعة والعالم.. ما من ظاهرة أو حالة أو تركيب في بنية السموات والأرض إلا وهي تنطوي على قدر مدهش من الانضباط، والتوافق، والتصاعد المرسوم صوب هدف محدد أو غاية مقصودة: الجبال والبحار والأنهار.. الرياح والسحب والأمطار.. السدم والنجوم والكواكب والمجرات.. كلها.. كلها تشهد بحقيقة الوجود الإلهي وتفرّده بالوحدانية المطلقة.. إذ

لا يمكن لكل من ألقى السمع وهو شهيد إلا أن يقرّ بذلك، وهو يشهد بأم عينيه هذا النظام المتوافق المتكامل المنضبط والمحكم، للخلق في مستوييه المادي والحيوي على السواء.

من أجل ذلك يدين القرآن الكريم الكفرة والملاحدة بأنهم﴿ .. كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ويصف عقولهم وقلوبهم كما لو أنها غطيت بطبقة من الرين الذي يحجب عنها القدرة على الإبصار.. بل يطمس على ذكائها ويقودها إلى عالم الأنعام: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

العلماء الكبار من ذوي العقول المتألقة، قادتهم مشاهداتهم للحالات الكونية والحياتية إلى الإقرار بوجود اللَّه ووحدانيته سبحانه. ويكفي أن تقرأ كتاب (اللَّه يتجلّى في عصر العلم) الذي حرَّره الباحث الأمريكي (مونسما) والذي يتضمن شهادات أكثر من ثلاثين عالمًا كبيرًا في تخصصات علمية شتى.. وكلهم انتهى بعد عشرين سنة أو ثلاثين من البحث والتنقيب في الظواهر الطبيعية والكونية والإنسانية، إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وبالمقابل، ووفقَ منطق الأشياء، فإن الذين لا تؤثر فيهم هذه الظواهر وتعمل عملها، فتهز أفئدتهم وتحرك عقولهم لكي تنبض بالإيمان، ما هم إلا كالأنعام بل هم أضل.

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص، ومن الدائرة الواسعة إلى الحلقة الأضيق استطعنا أن نقول بأن من المؤمنين أنفسهم من هم كالأنعام.. بل هم أضل..

الإيمان بمنطوقه العام وليس بمقتضياته الإسلامية، أي الإقرار بوجود اللَّه سبحانه دون أن يتعدى ذلك إلى المطالب العملية لهذا الإيمان، وأولها ولا ريب العبادة، ورأس سنامها الصلاة التي فرضت على كل مؤمن في العالم كتابًا موقوتًا، والتي اعتمدت معيارًا للتفريق بين المؤمن والكافر.

أعرف الكثيرين ممن التقيتهم في حياتي، في هذا المنعطف أو ذاك، يملكون الاستعداد لممارسة أي جهد، وتنفيذ أي عمل، إلّا أن يقتطعوا من وقتهم دقائق معدودات لأداء الصلاة، رغم أنهم مؤمنون، وأن عقيدتهم باللَّه سبحانه لا تشوبها شائبة.. ولكنه الكسل وليس الإنكار.

ومن هذه الزاوية بالذات كنت أحاورهم، وكنت أقول لهم إنكم من أجل ضمان الحصول على مرتبكم التافه في نهاية كل شهر، تنهضون فجر كل يوم على مدى عملكم الوظيفي الذي قد يمتد لثلاثين أو أربعين عامًا؛ لكي تكونوا في دوائركم في الوقت المحدد، وتقضون هناك الساعات الطوال تمارسون جهدًا شاقًا وتلاحقون مطالب المراجعين، وتنفذون الأوامر الإدارية التي تنهمر عليكم كالسيل، لا يستطيع أحدكم أن

يعتذر أو يتخلف عن العمل والدوام ولا أن يقدم أو يؤخر في مواعيد الحضور والانصراف إلا في حالات العذر القاهر. فماذا لو اقتطعتم من وقتكم وجهدكم دقائق معدودات لأداء الصلاة؟ وتنفيذ الأمر الإلهي الملزم؟

فلا أكاد أتلقى منهم جوابًا مقنعًا على الإطلاق.. بل إن بعضهم يبلغ به قصور الرؤية حدّ أن يقول: المهم هو الإخلاص في العمل وليس شكليات الصلاة!

أعرف موظفًا (نموذجيًّا!) قضى في عمله الوظيفي أكثر من ثلاثين عامًا دون أن يسمح لنفسه بالتمتع بإجازة يوم واحد على امتداد هذه السنوات الثلاثين.. وكان يفخر بذلك ويعتبر « حالته » نموذجًا يتحتم أن يقتدي به كل موظف جاد.. ثم إذا به يومًا، ربما بسبب خطَأ تافه بسيط، يتلقى عقوبة إدارية من مديره العام، وما لبث أن أعقبها، بسبب رد فعل الموظف الجاد إزاء مديره، أن صدر الأمر بنقله إلى دائرة أخرى بدرجة أقل.

وقد زرته يومًا في عمله الجديد فوجدته غارقًا بين أكداس الأضابير وطوابير المراجعين، فيما هو ليس من مهمته ولا درجته الوظيفية المتقدمة..

لعل مديره العام أراد أن يضاعف له العقوبة فدفعه إلى هذا المكان.

كان نزقًا، وقد بلغ به الغضب والجهد منه مبلغهما، وقال

لي وهو يدفع أكداس الأضابير من أمامه لكي تتاح له رؤيتي: لقد قررت أن أحيل نفسي على التقاعد رغم أن مرتبي سينخفض بذلك إلى حدّ كبير.. ولكن للصبر حدود.

هممت أن أقول له بأنه يستحق هذا كله؛ لأن إخلاصه كان مجتزأً، ولأنه كان ينظر إلى الأمور بعين واحدة، وأنه كان سيضمن الأجر الجزيل والمضاعف، فقط لو أنه قدم للَّه سبحانه من جهده ووقته عشر.. عشر.. عشر.. هذا الذي قدمه لدائرته، ولمديره العام الذي لم يكن وفيًّا معه على الإطلاق.

وهممت أن أقول له بأن الصلاة التي يريدها اللَّه سبحانه ليست أمرًا شكليًّا، ولكنها ممارسة تدفع إلى مزيد من الإحسان والإتقان والإخلاص في العمل.. وجهان لحالة واحدة لا يمكن فك الارتباط بينهما على الإطلاق.. ومن لم تنهه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللَّه إلا بُعدًا.. كما حدّثنا رسول اللَّه ﷺ.

ولكنني آثرت الصمت لأنني أعرف مسبقًا ألّا جدوى من الحديث مع هذا النمط من الناس، في موضوع كهذا، على الإطلاق...

* * *

وتأنس إليه وحوش الغاب

ما أروع الأخبار والأقاصيص التي يزخر بها تراثنا الروحي وكتب التراجم التي تتحدث عن هذا الرجل الصالح أو ذاك، يخرج إلى البراري فتأنس إليه وحوش الغاب، وتسير إلى جواره الأسود والضواري.

إنها الصداقة الحميمة التي يعقدها الإنسان المؤمن، الودود، المترع رحمة وشفقة، مع الكائنات من حوله.. ليس مع الأحياء فحسب، بل حتى مع الطبيعة والأشياء والموجودات..

صداقة فريدة من نوعها تنداح دائرتها لكي تصل بين الإنسان والسموات.. بينه وبين الكواكب والسدم والأجرام والنجوم.. وتعقد بين الأطراف كافة ما يمكن تسميته بالألفة الكونية التي ما عرفها دين من الأديان ولا مذهب من المذاهب.

منذ البدايات الأولى في العمق الزمني البعيد، اقتطعت الأرض من الكتلة الكونية، وأعيد بناؤها لكي تكون جاهزة لاستقبال الإنسان.. الأرض بكل مواصفاتها وحيثياتها ونسبها وأبعادها.. الأرض بفيزيائها وكيميائها وجغرافيتها وجيولوجيتها.. والتي تجعلها مهيأة تمامًا لاستقبال

الإنسان: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

لقد أريد للأرض، منذ لحظات الخلق الأولى، أن تكون مسكنًا صالحًا للإنسان.. وأن تنطوي على شبكة من الطاقات والإمكانات والمذخورات التي تمثل خزينًا استراتيجيًّا لا نفاد له لخدمة الإنسان، وتمكينه من مواصلة البقاء.

ومنذ البدايات الأولى وضعت الشمس والقمر في مكانهما المناسب تمامًا؛ لتقديم الإضاءة والدفء للإنسان، ورتبت نسب المكونات الغازية بما يتيح استمرارية الحياة.. ورسمت، من أجل إدامة وصول الماء العذب لأفواه الزرع والضرع والإنسان، دورة معجزة تنبني حلقاتها المتعاقبة، بعضها على بعض؛ لتحقيق الهدف المنشود.

منذ البدايات الأولى أريد للعلاقة بين الإنسان والعالم

من حوله أن تتشكل في أجواء المحبة والألفة والتعاطف.

حتى ونحن نطوف حول الكعبة في مواسم الحج والعمرة، نشارك السدم والكواكب والأقمار والنجوم دورانها الأبدي الذي يذعن لأمر اللَّه ويسبِّح بحمده.. في مهرجانها الذي يعبر بلسان الحال عن شهادة التوحيد المطلقة..

حتى ونحن نقرأ في كتاب اللَّه سورًا بكاملها تحمل اسم هذا الحيوان أو ذاك، وهذه الحشرة أو تلك، نجد أنفسنا أمام دعوة لعقد صداقة من نوع ما مع هذه الكائنات.. ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ٨] والنحل أوحي إليها ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]. والنمل يتلقى من سليمان عليه السلام إشارة السلم بين الطرفين حيث لا خوف من طغيان القوي على الضعيف، ومن يملك الحيلة على من لا يملكها ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٧- ١٩]..

صداقة من نوع فريد ليس مع عالم النمل فحسب، بل مع عوالم الطيور.. فها هو ذا الهدهد يسفر لسليمان في أخطر مهمة سياسية بين مملكتين في الأوج من القوة والجبروت.

منذ البدايات الأولى أريد للأرض أن تتزين للإنسان.. أن تمنحه الجمال وأن تنتشر في ربوعها الحدائق ذات البهجة.. وأريد للإنسان أن يقابل هذا كله بالشكر والعرفان والامتنان..

وها هو ذا الرسول المعلم - عليه أفضل الصلاة والسلام - ينحني على شجرة ورد.. يمسّد على أغصانها ويقول: « **ليتني شجرة تعضّد** »[1].. ويقف قبالة جبل أُحُد متواجدًا، متأملًا، عاشقًا، ويقول لأصحابه مشيرًا إليه: « **أحد جبل يحبنا ونحبه** »[2]..

إنه ﷺ يختصر بكلمات قلائل قضية الألفة الميتافيزيقية بين الإنسان والكون.. بينه وبين العالم.. والطبيعة

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

والكائنات.. والأشياء..

أية علاقة حميمة هي هذه؟ وأية مساحة كبيرة منحها إياها هذا الدين الذي دأب على وضع الإنسان والموجودات في مكانها الصحيح من خارطة الكون والعالم.. كما أراد لها اللَّه سبحانه أن تكون!

* * *
* *
*

شيء للفضائيات العربية والإسلامية

على ما يقدمه العديد من الفضائيات العربية والإسلامية من جهد إعلامي مبرمج، هادف، فإنها بحاجة إلى المزيد في زمن تضخم الآلة الإعلامية بشكل أسطوري، ووصول الخطاب، أيًّا كان، في التوّ واللحظة إلى كل الناس في كل مكان.

إنه تحدٍّ خطير قد يطوينا إن لم نعرف سبل الاستجابة الناجعة له، والتعامل معه، وقد يمنحنا قدرة هائلة في إيصال خطابنا إن استطعنا توظيفه في وتائره العليا.

وأول ما يلاحظ على الفضائيات المعنية بالخطاب الإسلامي أن كلًّا منها يعمل على انفراد وكأنه جزيرة منعزلة، وأن جسور التواصل بين هذه الفضائيات مقطوعة تمامًا. هذا إلى أن الفضائية الواحدة لا تكاد تملك برنامج عمل ذا عمق استراتيجي بعيد يرى بوضوح ما كان، وما هو كائن، وما يجب أن يكون.. وقد ينجرّ بعضها في العديد من برامجه إلى ردود أفعال، بالسلب أو الإيجاب، لما يقدمه الآخر، بينما يتحتم أن نبدأ نحن أفعالنا من ذوات أنفسنا.

والعديد من القنوات يمارس نوعًا من التكديس وعدم التوازن في المواد المقدمة، فيما يقود المشاهد - أحيانًا -إلى الملل الذي قد يدفعه إلى البحث عن قنوات أخرى. هذا

فضلًا عن الأخذ بالجد الكامل الذي يغيب معه الترويح والترفيه، فيما يدفع هو الآخر إلى الانصراف عن القناة.

ومنذ زمن ليس بقريب أصبح الإعلام علمًا له أصوله وقواعده، وأنشئت له المعاهد والكليات والأقسام، وغدا من الضروري توظيف الخبرات الحِرَفية في الفضائيات، وعدم استقدام كل من هب ودب، من أجل ترشيد مسيرة القناة، وبناء برامجها على رؤية تخصصية تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع..

هذا إلى وجود نوع من عدم التفريق بين خطابنا لذوات أنفسنا كمسلمين، وبين التوجه بالخطاب إلى (الآخر) من غير المسلمين، الأمر الذي يحتّم إعادة النظر في العديد من برامجنا، وصياغتها في ضوء هذه الثنائية، فيما يمكننا من بناء أنفسنا من جهة، وإيصال الرؤية والمشروع الإسلامي (للآخر) والتأثير فيه، وإقناعه، من جهة أخرى.

وإنها - والحق يقال - أمانة كبيرة في أعناقنا جميعًا، أن (نوصّل) القول إلى الآخر بأكبر قدر من العمق والوضوح والشفافية، وإدراك البعد الفكري والنفسي والثقافي لهذا الآخر، كي نتمكن من اختراقه، وربما كسبه في نهاية المطاف.

إن المسألة لا تقف - كما قد يخيّل للبعض - عند حدود ردّ التُّهم الموجهة إلينا، والدفاع عن أنفسنا ضد المهاجمين،

وإنما أن نبادر فنقدم لهم مشروعنا الحضاري في زمن الحوار والصراع الحضاري؛ لكي يكونوا على بيّنة من الأمر، ولكي يروا بأمّ أعينهم عناصر ومفردات هذا المشروع الذي قلَّ نظيره، بل انعدم، بين المشاريع الوضعية والدينية المحرفة، والذي يَعِد بخلاص الإنسان والبشرية: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]

يمكن استدعاء بعض كبار المفكرين والباحثين والفلاسفة والكُتَّاب والأدباء والفنانين والساسة والدبلوماسيين ممن أدهشهم هذا الدين في بنيته الشمولية، أو في بعض حلقاته، لتبادل الحوار معهم وتوظيف مواقفهم الإيجابية من الإسلام.. وهم كثيرون.. كثيرون جدًّا يتجاوز عددهم العشرات والمئات بفضل اللَّه سبحانه.

ويمكن استدعاء من انتهى به الأمر من هؤلاء إلى الانتماء للإسلام لكي يتحدث عن تجربته.. هذا إلى تخصيص حلقات للكتب والإصدارات الأكثر أهمية عن هذا الدين، فيما يكتبه غير المسلمين، ووضعها في دائرة الضوء.

يمكن أيضًا توظيف جانب من الإنتاج الفني السينمائي، أو المسرحي، أو التسجيلي، الذي عرف كيف يتعامل مع الخبرة الإسلامية، ويكشف عن عناصر القوة والتألُّق فيها.

هذا إلى ضرورة أخرى تنطوي على أهميتها البالغة كي لا نكتفي بأن ندور في محيط أنفسنا ويخاطب بعضنا بعضًا، تلك هي تخصيص مساحات مناسبة للبث باللغات العالمية الأكثر انتشارًا.. بل إنشاء قنوات لا تبث إلّا بواحدة أو أكثر من هذه اللغات.

إنها فرصة ذهبية لتعريف العالم بأبعاد مشروعنا الإسلامي، وإلى جانب ذلك إطْلاعه على ما يجري في الساحة الإسلامية.. المشاكل والأحزان والمعاناة والآلام والآمال والضغوط القاهرة التي يسلطها الآخر على المسلمين، وصيغ الردّ المناسبة لمواجهة هذه الضغوط..

إن إعلامًا إسلاميًّا لا يعرف كيف يتحدث عن مسلمي العالم لا يمكن أن يكون إسلاميًّا، وإن الأمة التي لا تعرف كيف توصل همومها ومطامحها إلى سمع العالم وبصره، لا يمكن أن تكسب عطف العالم واحترامه.

وفي مقابل هذا كله فإن ثمة فرصة أخرى يمكن أن يمارسها هذا الإعلام:

متابعة عوار الحياة الغربية، وتَضحُّلها الروحي، ونزوعها المادي، وانكساراتها الأخلاقية، وغياب منظومة القيم الدينية والإنسانية في سلوكها الفردي والجماعي، وطغيان منطق القوة والاستئثار في تعاملها مع الآخر، وتصاعد وتائر

الجريمة المنظمة في بلدانها، وهو بمجموعه يمثل تيارًا رماديًّا ينذر بالويل، ويعكس حالة حضارة اختارت أن تشذ عن كلمة اللَّه، بل أن تعلن حربها عليه..

هنالك مبدأ عسكري يقول: « إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع »، ونحن بتوظيف فضائياتنا في الكشف عن مناقص وانكسارات الحياة الغربية، يمكن ليس فقط أن ندافع عن أنفسنا، بل أن نؤكد مصداقية ونبل وفاعلية الدين الذي ننتمي إليه.

* * *
* *
*

يمنحك الصراط.. ويحمي ظهرك!

الإسلام هو الدين الوحيد والمبدأ المتفرّد الذي يمنح المنتمين إليه الطريق المستقيم صوب الأمام.. وهو في الوقت نفسه يحمي ظهره ماديًّا وأدبيًّا من حيث لا يستطيع المرء مطلقًا التحقق بهذه الحماية..

إنه يضع عشرات، بل مئات، من صمامات الأمان في مجرى الحياة البشرية؛ لكي تحمي ظهر الإنسان الفرد والجماعة، وكرامتهما، وخصوصياتهما، من أي شكل من أشكال العدوان.. من أية طعنة من الخلف.. من أية خيانة في الغيب.. من أي غدر أو غش أو تزوير أو اغتصاب..

وإلّا فأية عقيدة في العالم تمنع غِيبة الإنسان، والتجسس عليه، والسخرية منه في ظهر الغيب؟ وهل يرضى أحد في العالم، على الإطلاق، أن يغمزه الآخرون من وراء ظهره، وينبزوه بالألقاب، ويغتابوه، ويجرّحوه، وهو بعيد عنهم لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه ضد مطر السوء هذا الذي يقذفه به الآخرون؟

وبغضِّ النظر عن أن الإنسان خلق خطّاءً، وأن حياته لا يمكن أن تخلو من المطاعن والثغرات، وسلوكه لا يمكن أن يبعد عن الاعوجاج.. فإن أحدًا لا يمكن أن يقبل بأن يطعنه

الآخرون من وراء ظهره.. بعيدًا عن المكاشفة، والمصارحة، وجهًا لوجه..

هذا هو المطلوب على المستويين الأخلاقي والإنساني.. أن نعالن الآخر برأينا فيه، أو في هذه الحلقة أو تلك من شخصيته وسلوكه وتصرفاته.. أما أن نمارس هذا على غفلة منه، دون أن نعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه، فذلك عمل لا أخلاقي ولا إنساني في الوقت نفسه..

ومن خلال تجاربنا الذاتية، يعرف كل واحد منا كم هو مرّ كالعلقم أن يطعنه الآخرون من وراء ظهره غيبة أو لعنًا أو تنابزًا بالألقاب.. وأتحدّى أي إنسان في العالم يمكن أن يقبل على نفسه ممارسة لا أخلاقية كهذه..

المكاشفة في حضور الطرفين.. نعم.. وقد تؤتي ثمارَها الحلوة فتصحّح الخطأ، وتقوِّم الاعوجاج، وترد السلوك إلى سويته المتعارف عليها.. أما أن أهاجم الآخر وهو لا يدري فذلك هو المرفوض..

في سورة الحجرات منظومة من العلامات، والضَّوابط، والتحذيرات، والأسلاك الشائكة، التي تمنع الناس من اختراق بعضهم بعضًا وهم غافلون.. تحمي ظهورهم بقوة الأمر الديني وقدرته على الفعل، وتجعلهم يمضون في طريقهم وهم مطمئنون إلى أن أحدًا لن يطعنهم من الخلف وهم غافلون.

لنستمع إلى كلمات الله فهي أبلغ من كل قول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

أي دين أو عقيدة في العالم تمنح الإنسان، حتى لو لم يكن من المنتمِين إليها، هذه الحماية من الاختراق؟

ليس هذا فحسب بل إن هذا الدين يمضي بخطوات مدهشة في هذا السبيل فيوسّع مساحة الحماية لكي تشمل كل شيء: إنه يحمي النفس من وسوسة النفس.. والإنسان من الشيطان.. والخير من الشر.. والجارَ من الجارِ.. والعرض من الشبهات.. والمال من الابتزاز.. والفرد من الجماعة.. والجماعة من الفرد.. والجنس من الجنس.. والأمة من الأمة.. والبيت من السرقة.. والإنسان من القُوَى الخفية: السحر والجان والشياطين.. ويحمي العقل من الخرافات

والأساطير والظنون والأهواء.. والتجارة من الغش والتدليس والتطفيف.. والطريق من الأذى.. والشعوب من الطواغيت والأرباب.. والمتدينين من الكهنة والمحترفين.. وعِرْض الزوج والزوجة وأحدهما أو كلاهما يغادران الدار.

إنه يحمي حتى اللون الأسود من الأبيض ويعلنها صريحة أننا جميعًا خلقنا من آدم وأن آدم من تراب، وأنه « **لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى والعمل الصالح..** ».

حماية تُخلِّف وراءها بعيدًا كل الأساليب والإجراءات التي تمارسها النظم الوضعية بقوة الأجهزة والمؤسسات الأمنية والبوليسية التي لن تقدر على تجاوز المنظور إلى غير المنظور الذي لن تحميه إلّا تقوى اللّه والخوف من عقابه.

ولنرجع مرة أخرى إلى كتاب اللّه لمتابعة إحدى المفردات في هذا السياق: اختراق أعراض الناس وهم غافلون لا يملكون القدرة على الدفاع عن أنفسهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ

ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ – ٩].

وماذا بصدد اتهام الأبرياء، أو إسقاط التهمة عليهم وهم غافلون؟!

هذه قمة قرآنية أخرى تثير الدهشة وتتضاءل إزاءها كل نظم العالم الوضعية ومذاهبه وأديانه المحرفة..

والذي يثير الدهشة أكثر أن حماية الأبرياء من التهم الباطلة لا تنصب فقط على المنتمين لهذا الدين، وإنما تمضي لكي تشمل حتى غير المنتمين إليه.. بل خصومه وأعداءه..

ويكفي أن نقرأ في كتاب الله واقعة اليهودي الذي حاول بعض المسلمين إسقاط تهمة السرقة عليه، للنفاذ بجلودهم، وهو من السرقة بريء: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا

فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧ - ١١٣].

* * *
* *
*

وجهان لحالة واحدة

الإيمان بلا عمل لا يعني شيئًا ولا يتمخض عن شيء..

والعمل بلا إيمان لا يعني شيئًا ولا يملك عناصر الديمومة والبقاء..

إنهما وجهان لحالة واحدة.. وأي محاولة لفك الارتباط بينهما ستقود إلى الضلال.. ولن يخدعنا أولئك المنكبون على العبادة بمفهومها الطقوسي الصِّرف دون أن يعملوا شيئًا، أو يقدموا لمجتمعهم وأمتهم ودينهم شيئًا.. ولا أولئك المنكبون على العمل وقد قطعوا صلتهم بالإيمان بالله واليوم الآخر.. لأن مصير عملهم هو الإحباط كما يؤكد القرآن الكريم، سواء في الدنيا أو الآخرة أو فيهما معًا: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]،﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٦]، ﴿ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٩]..

في المنطوق الإسلامي لابد من الإيمان العامل والعمل

المؤمن.. هكذا أريد للإنسان منذ لحظات هبوطه الأولى في الأرض، أن يتلقى كلمات اللّه سبحانه، وأن يعمل بها ويسير على هديها: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٧ - ٣٩]، ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

[طه: ١٢٣ - ١٢٦].

ومع العمل.. العبادة.. باعتبارها الهدف المركزي للخليقة.. ولكن أية عبادة هذه؟ إنها تلك التي تتجاوز حدودها الطقوسية إلى الحياة على امتدادها حيث تصير كل فاعلية يتوجه بها الإنسان إلى اللّه، عبادة يتقرب بها إليه.

وهكذا يتحقق الالتحام منذ لحظات الخلق الأولى بين الإيمان والعمل، ونحن نقرأ في كتاب اللّه لا نكاد نجد ذكرًا للإيمان، أو دعوة إليه، أو حضًا عليه، دون أن يكون مقترنًا بالعمل الصالح، والعكس صحيح بالضرورة..

ولن يكون بمقدور الأمة المسلمة أن تؤدي دورها وتنفذ مهمتها في الأرض، ما لم يقترن لدى أفرادها جميعًا الإيمان بالعمل الصالح.. وحيثما غاب الارتباط، وانفك أحدهما عن الآخر، فقدت الأمة دورها، وعجزت عن أداء مهمتها التي أريد لها ابتداء أن تكون مهمة عمرانية حضارية، تبني وتعمر وتعيد صياغة الحياة الدنيا بما يجعلها صالحة لعبادة اللَّه بمفهومها الشامل، والالتزام بكلمات اللَّه، أي بمنهجه ودينه.

إن الأمةَ الإسلامية تجد نفسها بالضرورة، ووفق المعادلات القرآنية والنبوية، في قلب الفعل الحضاري.. في بؤرة مثلث التسخير والاستخلاف والاستعمار (بمفهومه اللغوي وليس الاصطلاحي).

لقد أريد للأمة المسلمة أن تكون مستخلفة على عالم سُخِّر لها ابتداء؛ لكي تعمره وتنميه من أجل أن يكون البيئة الصالحة لعبادة اللَّه.. والآيات التي تحدثت عن الاستخلاف والتسخير منبثة في كتاب اللَّه.. ومعها تلك الآية التي تقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] من أجل أن تكون الأرض المكان الملائم لعبادة اللَّه: هدف الخليقة الأساس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ، ٥٧].

وحيثما تلفَّتنا وجدنا أن هذه (العوامل) الأربعة في تشكيل المعادلة البشرية في العالم: الاستخلاف والتسخير والاستعمار والعبادة.. لن تتحقق وتغدو أمرًا واقعًا إلا بالفعل الإيماني، أو الإيمان الفاعل.

ولعل واحدًا من أهم أسباب انكسارنا الحضاري هو أننا منذ قرون بعيدة لم نلتفت جيدًا إلى مطالب المعادلة المذكورة. إلا أن هذا يجب ألّا يدفعنا إلى الإحباط، والمزيد من الانسحاب، وترك العالم للفاجر الكافر ليتحكم فيه كما يشاء، بل العكس، إنه يعطينا الدافع لاستعادة دورنا الحضاري بمجرد أن ننتبه جيدًا إلى مفردات المعادلة، وصيغ الربط بينها بما يجعلها قديرة على تكوين خير أمة يمكن أن تخرج للناس.. تمامًا كما حدث أول مرة.

وقد رأينا جميعًا بأمِّ أعيننا ما صنعته فاعلية الغربيين المنسلخة عن الإيمان من تعاسة وشقاء وظلم وعدوان، غطت - ولا تزال - مساحات واسعة من العالم.. ولن يكون الخلاص إلّا بأمة تعرف كيف يستهدي العمل بضوابط الإيمان ومؤشراته القادمة من السماء..

وإلا فإنه لا خلاص..

* * *
* *
*

عندما تتحول السلطة إلى مافيا

وجدت الدول والسلطات أو الحكومات في الأساس وفق ما يمكن اعتباره تعاقدًا اجتماعيًّا تقوم فيه السلطة بالسهر على مصالح الشعب أو الجماعة، لقاء طاعة هذه لحكوماتها، والالتزام بقوانينها وتعليماتها وتشريعاتها التي تستهدف خدمة الشعب.

هذه مسألة تكاد تكون بديهية من البديهيات.. ولكن حدث وبمرور الوقت ما لم يكن في الحسبان.. انقلاب العديد من السلطات على تعاقدها المكتوب أو غير المكتوب مع شعوبها، وتسلّطها عليها، ومحاولة تحويلها إلى قطيع من الأغنام يدرّ ضرعه في أفواه السلطة..

ومن لم يستجب.. من يحاول أن يخرج عن الإيقاع.. من يتمرَّد على روح القطيع، يُعزل ويعاقب، ويؤذى في نفسه وماله، ويسام سوء العذاب.

وبمرور الوقت تحولت (السلطة) في العديد من الدول إلى (مافيا) لا يهمها سوى مصالحها، وأمنها، وشهواتها، واعتماد أقصى صيغ العنف والإرهاب ضد معارضيها، أو حتى ناصحيها.. وتسليط مثلث المال والجنس والقتل، وفق أكثر الأساليب دناءة ولا أخلاقية لتدمير الخصوم

والمعارضين.. بل إخراجهم من الوجود.

ولطالما تحدث الأدباء والمفكرون وكتبوا عن الظاهرة، ولعل من أكثر ما يخطر على البال شهرة ورواجًا روايتا الأديب الإنكليزي المعروف (جورج أرويل): (مزرعة الحيوان) و (١٩٨٤م) حيث يمضي فيهما لعرض ظاهرة المسخ المحزنة التي تمارسها السلطة الطاغية ضد شعوبها، وتحويلها إلى قطعان محبوسة في الحظائر والزرائب.

ولا ننسى كذلك رائعة الروائي الروماني (كونستانتان جيوروجيو) (الساعة الخامسة والعشرون) والتي تعد - بحق - قمة ما كتب في هذا المجال.. ورائعتي الروائي الكولومبي الشهير (غابرييل ماركيز): (مائة عام من العزلة) و (خريف البطريق)، ورواية زميله اللاتيني (ستورياس): (السيد الرئيس).. وهل ننسى رائعة الأديب السوفياتي (بوريس باسترناك): (دكتور زيفاغو؟!)

الحديث عن الظاهرة يطول؛ ولذا سأقف لحظات عند مسألة خطرت على بالي: حالة مقارنة بين السلطة والمافيا.. حتى إذا ما تبين لنا أن السلطة قد نكلت عن العديد من التزاماتها، تحولت، وبالتدريج الصامت حينًا، والمعلن حينًا آخر.. إلى مافيا هي الأخرى.. ولنا أن نتصوّر ماذا سيحل بالشعوب المسكينة وهي تدخل مرغمة تحت حكم مافيوي

لا يرعى في الشعب الذي يحكمه إلًّا ولا ذمة ولا إنسانية ولا ضميرًا.

وها كم جدولًا يتضمن بعض المفردات المقارنة وهي - بالتأكيد - ليست كل المفردات، فهناك غيرها الكثير، ولكن هذا الذي نسوقه قد يكفي..

السلطة	المافيا
القيم	المصالح
الأكثرية	الأقلية
الشعب	العصابة
الأمن	الإرهاب
الخدمات	التجويع
الحرية	القسر
الكلمة	الرصاصة
الكفاءة	الانتهازية
العقل	الذراع
الصراحة	النفاق
المكاشفة	التستر

(تابع الجدول)

العقيدة	المنفعة
الطهر	الرذيلة
احترام المواطن	احتقار المواطن
الاختيار	الإكراه
السماحة	الانتقام
العطاء	الأخذ
التعاون	الأثرة
الآخر	الأنا
النزاهة	الشهوة

وبمقدور أي إنسان أن يتابع هذا الجدول المقارن ثم يصدر حكمه على السلطة التي يتعامل معها.. فكلما اغتيلت المفردات الخاصة بالسلطة وحلَّت محلَّها المفردات المافيوية، اقتربت السلطة من المحظور، وأصبحت هي الأخرى - في نهاية الأمر - مافيا لا يفرقها عن المافيات الأخرى سوى غطاء الشرعية الذي منحته إياها الجماهير، أو انتزع منها بعبارة أدق

* * *
* *
*

الحوار أم الصراع؟

يصعب، بل يستحيل الحديث عن حوار الغرب والشرق دون التأكيد على وجهي الظاهرة، وإدارة الكاميرا على الجانبين معًا..

والجانبان هما الصراع والحوار..

تلك هي معطيات قرون متطاولة من الزمن، رسخت عبرها تقاليد السياقين بغض النظر عن المساحة التي احتلها كل منهما..

الصراع قائم ومتواصل بين القارتين الأوربية (وامتدادها إلى أمريكا فيما بعد) والأفروسية (إفريقيا وآسيا).. أو بين الغرب والشرق، أو بين المسيحية والإسلام.. وقد عبّر عن نفسه بصيغ شتى، كما أن دوافعه لم تكن واحدة.

فهنالك الدافع الديني الذي تمثّل بسلسلة من الحلقات المتتالية التي أعقب بعضها بعضًا، ولم تكد تترك هامشًا زمنيًّا لالتقاط الأنفاس: الصراع البيزنطي الإسلامي، الحروب الصليبية، حركة الالتفات الإسباني البرتغالي، الصراع الأوربي العثماني، الاستعمار القديم، ثم الاستعمار الجديد (الإمبريالية)، والتبشير، فالنظام العالمي الجديد ، بكل ما تنطوي عليه هذه الهجمات من بُعدٍ ديني – صليبي

مؤكد، يفصح عنه لسان المقال حينًا ولسان الحال في معظم الأحيان..

هنالك بموازاة هذا الدافعان الاستراتيجي والاقتصادي، واللذان مارسا دورًا خطيرًا في صراع الغرب مع الشرق، وعالم المسيحية مع عالم الإسلام..

هذا إلى جانب التغاير الثقافي الذي يقود إلى التغاير الحضاري، والذي دفع هو الآخر باتجاه الصراع متمثلًا بالغزو الثقافي حينًا، وضغوط وتحديات العولمة حينًا آخر..

باختصار شديد، يبدو أن عوامل الاصطراع تملك حضورًا مؤكدًا في العلاقة بين الطرفين، وهو حضور ينطوي على عمق زمني واسع ممتد في مجرى التاريخ.. ولا يزال الأوربيون - من جهتهم - يتذكرون محاولات الاختراق الإسلامي من الغرب (الأندلس) ومن الشرق (الدولة العثمانية).. ولا تزال موقعة تور بواتييه (بلاط الشهداء) التي هُزم فيها عبد الرحمن الغافقي عام (١١٤هـ) تمثل حضورًا مؤكدًا في الذاكرة الأوربية باعتبارها محاولة إسلامية متقدمة لاختراق الغرب المسيحي.. والمفكر الفرنسي الحرّ (برنارسيشير) في مقال له بعنوان: (الحجاب، العرب، ونحن) يقول مذكرًا بحوادث (١٩٩٢م) في فرنسا بخصوص الحجاب: « حين تحجبت بعض الفتيات (المسلمات) في (الليسيه) تحركت

الطبقة السياسية وراح يدلي كلٌّ بدلوه حول الاحترام الواجب تجاه بلد الضيافة، حتى إن أحد الوزراء هدد باتخاذ موقف، واجتمعت الهيئة الدستورية، في حين كان يعلن بعض المثقفين - جهارًا - أن الوطن العلماني في خطر!! ».

ويمضي (سيشير) إلى القول بأنه « مهما بلغت قدرة عملاء العروض المشهدية على التلاعب والتأثير - وهم لم يترددوا في ممارستها بوقاحتهم المألوفة - فإن حادثًا كهذا لا يكتسب مثل هذه الأهمية ولا يثير مثل هذه الأصداء، إلا إذا كان يمس الطبقات العميقة من الوعي الجماعي. وبما أن من تحرّك هذه المرة ليس من أتباع (الساسة الفاسدين) وإنما من المفكرين اللامعين الذين اجتاحتهم فجأة موجة الغضب المفرط، فيجب أن نبحث عن الدوافع البعيدة.. إنها أعراض (بواتييه) المرضية!!.. التي تشهد على جهلنا العميق بحقائق الإسلام، كما تشهد في الوقت نفسه على عودة غريبة للمكبوت تجعل المسلم يحل وقتيًّا محل اليهودي في الاستيهام العنصري والمتوتر لغيرية قوية تنذر وتهدّد.. إنه النسيان المذهل والنفي المجنون لأفضال الحضارة الإسلامية على الغرب.. ولقد لعبت الكنيسة المسيحية في إطار هذا الكبت الكبير دورًا لا تحسد عليه أبدًا، وآن الأوان لكي تعترف بذلك، خصوصًا وأنها سلبت

الكنز الثمين الذي وصلها من الفكر الإسلامي، ثم عملت على طمس معالمه المدهشة ».

وبموازاة هذا كله شهد الطرفان حلقات من الحوار (السلمي) والنشاط الديبلوماسي والتبادل الحضاري، بدءًا من زمن البيزنطيين والفرنجة وانتهاءً باللحظات الراهنة، حيث شهدت العصور الأموية والعباسية والمتأخرة والصليبية والاستعمارية، مساحات للحوار بغض النظر عن مدى التكافؤ بين الطرفين.

إذن فإن إمكانية إيجاد مساحة للحوار في اللحظات الراهنة أمرٌ ممكن في ضوء المعطيات التاريخية.. إلّا أن خلط الأوراق في هذا الحوار هو الأمر غير الممكن والذي قد يقود إلى نتائج معاكسة، أو طرق مسدودة في أفضل الأحوال.

فإن الحوار الديني في مسائل العقيدة أمرٌ لا يأتي بطائل؛ لأن التغاير موغل في العمق، وممتد من الطول إلى الطول.. فما بين التثليث والتوحيد مسافة أربعين ألف خريف لا يمكن عبورها بكل حال من الأحوال..

كما أن حوار المغلوب مع الغالب لن يتمخض هو الآخر عن شيء، بل على العكس، سيجرّد المغلوب مما تبقى، ويضع المكاسب كلها في جيب الغالب..

فإذا تجاوزنا هاتين الحالتين، فإن الأبواب تظل مشرعة، والإمكانات قائمة للحوار والتقارب بين الطرفين، وبخاصة إذا ما وضعنا في الحسبان الضرورات السياسية والاستراتيجية التي تحتم على الشرق الإسلامي البحث عن فرص لكسب هذا الطرف أو ذاك في دوّامة الصراع الدولي الراهن.

هذا إلى الضرورة الدعوية التي تتطلب انفتاحًا على الغرب يتيح للدعاة، وللجاليات الإسلامية عمومًا، فرصة التحرك لكسب المزيد من الغربيين إلى الإسلام، وهي الظاهرة التي نشهدها صباح مساء والتي تبشر بمستقبل واعدٍ لهذا الدين.

* * *
* *
*

لقد ربح البيع

يعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية أحيانًا مفردات البيع والشراء في قضية الانتماء الديني، بعد رفعها من عالم الأشياء إلى فضاء العقائد والأفكار.. ونستمع إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يقول لأحد أصحابه الكرام الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل اللَّه: « **لقد ربح البيع** ».. ونقرأ في كتاب اللَّه: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ [النساء: ٧٤]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]،﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٨٦]،﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩٠]،﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٧٧]،﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١] ،﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [النحل: ٩٥].

ونجد أنفسنا ونحن نعاين المنظور الإسلامي للمسألة أمام مستويين، أحدهما معني بالشهادة في سبيل اللَّه، وهي

قمة الصفقات التي يتحقق معها للإنسان الربح الأكبر. أما المستوى الثاني الذي أريد أن أقف عنده في هذا المقال فيتعلق بالتعامل مع المفردات الإسلامية على إطلاقها.

ذلك أن التزام المسلم بأية مفردة من مفردات دينه على الوجه المطلوب، ينطوي بالضرورة على صفقة رابحة بالمعيارين الدنيوي والأخروي معًا. فليس ثمة حلقة أو ممارسة في هذا الدين، عقدية، أم تشريعية، أم تعبدية، أم سلوكية، إلّا وهي تَعِدُ بالربح الوفير والمردود السخي في الدنيا والآخرة.. والذكي الذكي هو من يعرف كيف يتعامل مع الظاهرة ويكسب الصفقة..

إن الصلاة نفسها، هذه التي توحي بأنها صلة روحية مجردة بين العبد وربه، تنطوي على مردود دنيوي مترع بالفوائد والمصالح.. إنها على المستوى الصحي، ترغمنا على أن نتحرك، ونحن نتجه إلى المساجد مرات عديدة، ذهابًا وإيابًا، أو ونحن نؤدي الصلاة وفق حركة رياضية مرسومة يعرف الأطباء جيدًا كم أنها ضرورية للإنسان بين الحين والحين.. وهي على المستوى النفسي، محطات للاسترخاء (الريلاكس) وترك العمل وما ينطوي عليه من شد ذهني ونفسي وجسدي، دقائق معدودة تمكن الإنسان من استئناف نشاطه بعد أن يكون قد استجمَّ قليلًا.. ونحن نتذكر جميعًا

النتيجة التي خلص إليها العالم الأمريكي (ديل كارنيجي) في كتابه المعروف (دع القلق وابدأ الحياة) وهي أننا إذا أردنا أن (نطيل أعمارنا) (هكذا يقول) وأن نحافظ على سويتنا الصحية، ونحمي قلوبنا من الإجهاد المتواصل الذي قد يقودها إلى العطب، فإن علينا كلما بلغنا حافة الإعياء، أن نكف عن العمل، وأن نسترخي دقائق معدودات.

على المستوى الاجتماعي، تبدو الصلاة فرصة رائعة لتعميق التعارف بين أبناء الحي الواحد، أو الأحياء المتجاورة، وتوثيق علاقاتهم الاجتماعية بكل ما ينطوي عليه ذلك من مردود لكل الأطراف.

وما يقال عن الصلاة يمكن أن يقال عن الصوم الذي تلتقي عنده منافع الروح والجسد على السواء، أو الحج الذي يتجاوز حدوده التعبدية الصرفة لكي يغدو مؤتمرًا عامًّا تجتمع عنده النخب والقيادات الإسلامية لتبادل الرأي في شؤون الأمة وهمومها.

المفردات كثيرة، وكلها صممت لكي لا يكون في نسيجها أي تعارض أو تضاد، بأية درجة كانت، بين الروحي والجسدي، وبين التعبدي والمنفعي؛ لأنها من تصميم اللَّه سبحانه القائل في مُحكم كتابه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

إنها صـفقة رابحة بكل ما في الكلمة من معنًى، ويأسف الإنـسان لأولئـك الـمغفـلين الذين فـوَّتـوا الفرصة على أنفسهم..

وها هنا تلحّ علي مسألة تبرُّج المرأة باعتبارها صفقة خاسرة بكل المعايير.. إنها تحوّل جسدها إلى سلعة رخيصة قد تقود معظم الباحثين عن الزواج إلى النفور منها والبحث عن الفتاة المحجبة التي هي أصلح بكثير للسكن والذرية الصالحة اللذين هما هدف الزواج.. إنها بتبرُّجها قد تخسر فرصتها في الزواج، وهي خسارة لا تكاد تذكر إزاء الخسارة الكبرى يوم الحساب إذ يكتب عليها ألّا تشم رائحة الجنة على مسافة سبعين خريفًا.. وهو عقاب مرعب لا يحتاج إلّا إلى قدر محدود من الذكاء لتجاوز ويلاته.. ولكن أين القلوب التي تحس والعقول التي ترى؟

وثمة أخيرًا - وليس آخرًا - ما كنت أقوله دائما لطالباتي في الجامعة.. إن التي اعتادت ألّا تأتي إلى الجامعة إلّا بعد أن تضع المكياج على وجهها، إنما تلحق بنفسها من حيث تدري أو لا تدري أكثر من خسارة..

إنها تخسر ما يقرب من نصف الساعة يوميًّا كان يمكن أن تعينها على الدرس.. وتخسر مبلغًا من المال هو قيمة هذا الذي تنفقه على تزينها.. وتخسر صحتها بهذا الكم اليومي

الكبير المسفوح على وجهها، وهو كله من المستحضرات الكيمياوية التي يحذِّر منها الأطباء، والتي تقود البشرة إلى التغضن في فترة مبكرة.. ثم.. وهذه هي الخسارة الكبرى.. إنها وقد تعطَّرت للآخرين سيكتب عليها ألّا تشم رائحة الجنة على مسافة سبعين خريفًا، بالمعيار الزمني الكوني وليس الأرضي بطبيعة الحال..

فأية صفقة بائسة هي هذه؟!

* * *
* *
*

لماذا نار جهنم؟!

بعض السذّج والطيبين (جدًّا) من أبناء جلدتنا يقولون بخجل وكأنهم يعتذرون: لو أن اللَّه - سبحانه - لم يعرض كثيرًا لعذاب جهنم في القرآن الكريم، فيظهر - جلَّ في علاه - بمظهر الجبروت والبطش ويخيف بني آدم!

وينقلون - معتذرين أيضًا - ما يقوله بعض المستشرقين في ديار الغرب من « أن رسالة الإسلام قوامها نار جهنم » (ويمكن الرجوع مثلًا إلى مقولة (بوزورث) في كتاب (تراث الإسلام) (سلسلة عالم المعرفة ١/ ١٩٠).

فأين نذهب - إذن - بالمساحات الموازية تمامًا والمخصَّصة في كتاب اللَّه للجنة، ولما سيثاب به المؤمنون من نعيم ما خطر على قلب بشر؟ وأين نذهب بالمنطوق الإلهي الصادر عن علم اللَّه المطلق، والذي يتجاوز دائمًا الرؤية الأحادية ويدير المنظور على الجانب الآخر، لكي يعطي لكلِّ حالة حقَّها من التوصيف المتكامل الدقيق؟

وأين نذهب بعلم اللَّه سبحانه بطبيعة الإنسان المزدوجة، وباستعداده للخير والشر، وباستجابته لكليهما على امتداد حياته، منذ لحظة الوعي الأولى وحتى لحظة الفراق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وأين نذهب بالحقيقة النفسية المترتبة على طبيعة الإنسان من أنه لابدّ من التعامل معها بمعياري الثواب والعقاب معًا، وإلّا جنحت عن سويتها وفقدت توازنها، وتمرَّست على الاعوجاج؟

وأين نذهب بمبادئ التربية التي تأخذ الإنسان منذ طفولته باللين والشدة معًا من أجل أن تقيمه على الطريق؟

وأين نذهب بالمبدأ المتفق عليه والذي يقول: « الوقاية خير من العلاج »، بحيث يصبح الإغراء بالثواب في أقصى درجاته، والتلويح بالعقاب في أشد حالاته، ضرورة من ضرورات هذا المبدأ؟

وأين نذهب برحمة اللَّه التي وسعت كل شيء، والتي ستكون الحكم الفصل يوم الحساب، والتي بلغ من التأكيد عليها أن وردت في كتاب اللَّه بتصريفاتها المختلفة (٣٣٣) مرة؟!

وأين نذهب بالشفاعة التي ستمارِس دورها هي الأخرى في المحكمة الكبرى وتأخذ بيد ألوف الخطَّائين؟

وأين نذهب بمغزى الوجود البشري في العالم ووظيفته الأساسية، حيث أريد للإنسان منذ البداية أن يتلقى كلمات اللَّه.. أي منهجه.. وأن يبني حياته وفق مفرداتها ومطالبها، وأنه برفضه ذلك سيستحق العقاب الذي يوازي خطيئته،

وهو العقاب الذي لا يقتصر على الآخرة وإنما يبدأ عمله في الدنيا: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦]، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٧ - ٣٩].

ثم، وهنا بيت القصيد.. أين نذهب بكل أولئك الذين كذّبوا على الحقيقة الكونية الكبرى القائمة على شهادة (لا إله إلا اللّه)، سواء بإنكارهم وجود اللّه سبحانه، أو الإشراك به، فمارسوا ما سمّاه القرآن (الظلم العظيم) لأنه في حقيقته أبشع أنواع الظلم على الإطلاق، رغم أن اللّه سبحانه قد ركّز الإيمان في ظهور بني آدم يوم خلقهم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ

بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

كما أنه سبحانه أودع الشاهد على وجوده ووحدانيته في فطرة الكون ونواميسه فضلًا عن فطرة الإنسان وخلقه المعجز: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

هذا إلى أنه سبحانه أنعم على البشرية بالنبوَّات التي كانت تأخذ بأيديها بين مرحلة وأخرى إلى الصراط، بكل ما ينطوي عليه من مقتضيات الإيمان والتوحيد، ودعاهم إلى الالتزام بالتعاليم وعدم الاستجابة لإغواء الشيطان؛ لأنه سيقودهم إلى الضلال: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

ثم، وهذا بيت قصيد آخر لا يقل أهمية.. أين نذهب بالمجرمين والقتلة والسفلة والطواغيت الذين ابتزُّوا الناس، وآذوهم، وسرقوا أموالهم، وحصدوا رؤوسهم، وهتكوا أعراضهم، وافترسوا أمنهم وسعادتهم، وساموهم سوء العذاب؟ أولئك الذين قد لا تطالهم يد العدالة النسبية القاصرة، العاجزة، في الدنيا، فيفلتون من العقاب؟

أليس من الحكمة أن نحذّرهم - أولًا - في الحياة الدنيا من أجل أن نضيِّـق الخناق على الفساد والطغيان إلى أقل مدًى ممكن.. ثم أن نتوعدهم - بعد ذلك - بأشد أنواع العقاب فيما يكافئ جرمهم الذي اقترفوه فأفسدوا الحياة الدنيا وجعلوها حالة قاسية لا تستحق أن تعاش؟

مساكين أولئك السذّج الطيبون جدًّا الذين لا ينظرون بأبعد من مواطن أقدامهم، والذين يصدِّقون بسهولة بالغة كل ما يقال!!

* * *
* *
*

يريدون جعلها معضلة!!

يملك المسلم - بقوة التعاليم التي تلقاها في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ - مفاتيح ذهنية ووجدانية حاضرة في التعامل مع أية حالة أو ما يخيّل للناس أنها معضلة، من مثل القدر والحرية.

وهي مفاتيح تتميز بالعفوية، والصدق، والشمولية، والقدرة على التوفيق بين الثنائيات، وعدم التشنج على النظرة أو الرؤية أحادية الجانب.

وقضية القدر والحرية - على سبيل المثال - لا تشكل - في ضوء ذلك - أية معضلة بالنسبة للمسلم، على مستوى الفكر أو الحياة، في نطاق المثقفين أو الناس العاديين..

إن مفاهيم القضية، ومرتكزاتها، وملامحها الأساسية، معروضة أمامهم في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، بقدر مدهش من المرونة والانفتاح لحكمة يريدها اللَّه سبحانه.. وهي بهذا تمنحهم التوحّد والسكينة، والقناعة والاطمئنان في لحظات الاحتراق واللَّهاث المحموم في سعير الحياة الدنيا، ومطالبها التي لا تنتهي، وآلامها وأحزانها ومصائبها التي تمطر على الإنسان أحيانًا كما تسحُّ السماء في مواسم الشتاء.. هذا إلى أنها تمنحهم القدرة على الاندفاع والاستشهاد في لحظات التضحية الكبرى.

ولكن الغربيين والمتأثرين بهم في ديارنا، يريدون بالقسر أن يجعلوا من المسألة معضلة يصعب حلّها وتفسيرها، تمامًا كما فعلوا في قضية المرأة المسلمة، وقضايا أخرى كان الإسلام قد وضعها في مكانها المناسب، فجاء المرضى والمنحرفون لكي ينقلوا إليها العدوى ويصيبوها بالمرض العضال.

إن مشكلتهم في أساسها أنهم يريدون أن يقيسوا فعلهم على فعل اللَّه سبحانه، وعلمهم على علم اللَّه سبحانه.. وهذه مسألة مستحيلة بكل المقاييس، وبالتالي فإنها ستتمخض عن جملة لا حصر لها من المعضلات والإشكاليات كتلك التي يجادل فيها البعض بخصوص القدر والحرية.

إن علم اللَّه سبحانه مطلق، يحيط بأفعالنا حتى قبل أن يبرأها، ولكن هذه الأفعال في دائرة الإرادة الإنسانية إنما تتشكل وفق معطيات هذه الإرادة، لا تنحرف يمينًا ولا شمالًا ولو بمقدار بوصة واحدة.

إننا نحسّ بهذا ونلمسه في خبراتنا اليومية.. في دراستنا.. في تخصصاتنا.. في وظائفنا.. في سلوكنا الأخلاقي، بل حتى في موقفنا الديني.. والنتائج تجيء دائمًا منبثقة عن أسبابها بالتكافؤ المحسوب.. ولطالما أشار القرآن الكريم إلى هذا في العديد من آياته البينات، وهو يعرض للفعل

البشري في إيجابه وسلبه على السواء: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]،﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]،﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[المائدة: ١٣].

وكثيرًا ما ترد عبارة ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] وعبارة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨].. في كتاب اللَّه..

مرة أخرى.. إن علم اللَّه سبحانه يحيط بأفعالنا، ولكنه - إذا صحَّ التعبير - يدعها تتشكل في دائرة الخيار البشري دونما أي قدر من الضغط والإكراه..

بل إن هذه المعادلة المدهشة انداحت لكي تتعامل مع الخيار الديني، رغم أن اللَّه سبحانه - منذ لحظات هبوط آدم - أراده خلاصًا للإنسان، وحذَّر من النكوص عنه والتفلّت منه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ [ق: ٤٥] ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢٢]..

وقد بلغ الأمر حدّ أن اللَّه سبحانه يمدّ في عمر الطغيان، ويفتح أمامه الطريق إلى النهاية، وفق آجال مرسومة في علم اللَّه؛ لكي يأخذه بنهايته هذه، سواء في الدنيا أو الآخرة، بعد

أن يوقع الحُجَّة عليه كاملة غير منقوصة، ويجيبنا - بذلك على السؤال المحيّر: لماذا هذا المدى المفتوح للطغيان؟ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يونس: ١١] ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤] ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٨، ٥٩]. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]

وكثيرًا ما تمنَّى البعض على الطواغيت أن يخففوا من ظلمهم، ويعدِّلوا سياستهم، ويكفوا أذاهم عن الشعوب والجماعات التي ابتليت بهم، وأن يؤوبوا إلى الاستقامة والخير بعد أن ألفوا الشرَّ وتعاملوا معه عشرات السنين.. ويجيبهم كتاب اللَّه سبحانه بأن هذا في معظم الحالات لا يمكن أن يكون لأن ﴿ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]، ولأنهم ما داموا قد

اختاروا طريق الشرِّ والضلال فإن لهم أن يمضوا فيه إلى نهايته؛ لكي يؤخذوا به هناك. وهذا - بطبيعة الحال - يختلف عن أوبة الأفراد العاديين من الضلال والمارقين إلى الخير والاستقامة والصلاح، حيث باب التوبة مفتوح على مصراعيه.

النتائج بأسبابها، ومن يزرع الشوك لا يحصد وردًا.. لا يحصد إلّا الشوك والحسك.. ذلك هو منطق الحق والعدل الذي قامت عليه السموات والأرض.. وأية محاولة للالتفاف على هذه الحقائق لا تعدو أن تكون خطأً علميًّا أو التواءً نفسيًّا.. وقد أراد هذا الدين أن يبرئ المسلم من الاثنتين.

* * *
* *
*

أجمل وأسعد حياة.. ولكن!

الحديث في المدارس والمعاهد والجامعات عن الأخلاق، وعلم الأخلاق، وفلسفة الأخلاق، بما في ذلك الأخلاق الإسلامية.. قد لا تعكس المطلوب بشكل حيوي مؤثر.. لأن الإسلام - بوجه الخصوص - أرادها أخلاقًا عملية.. أخلاقًا واقعية.. ممارسات يومية في البيت والشارع والسوق والمؤسسة والحياة العامة.. بين الأب وأبيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجته، والجار وجاره، والبائع والمشتري، والموظف والمواطن.. ممارسات تخترق العلاقات الاجتماعية وتعيد صياغتها بما يريده اللَّه ورسوله ﷺ.

الإسلام، من أجل أن ينفخ الحيوية في منظومة القيم الخلقية، ويمنحها طابع الالتزام، يجذرها في العقيدة والإيمان، ويبثُّها في شرايين الشريعة، ويغرسها في سلوك المسلم النابض بالحياة..

مقاطع وآيات لا يكاد يحصيها عدٌّ في كتاب اللَّه، ومعها حشد كبير من أحاديث رسول اللَّه ﷺ.. تضاف إليهما خبرات الآباء والأجداد الغنية الخصبة في مجال الأخلاق وآداب السلوك، تشكل جميعًا ثروة ضخمة ومعطيات في

غاية الخصب ما عرفتها أمة من الأمم بهذا الحجم والامتداد على مدار التاريخ.

والذي يتابع هذه الظاهرة في كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ يجد بوضوح يثير الدهشة كيف أنهما من خلال منظومة القيم الخلقية وضوابط السلوك، يسعيان لإنشاء حياة اجتماعية نظيفة وضيئة سعيدة متوازنة، لا يعكرها شيء، ولا يخترقها سوء.. حياة تنبض بالمحبة والانسجام والتوافق والوئام بين الناس جميعًا: داخل البيت.. بين الجار وجاره.. في الزقاق.. في الحي.. في الطرق العامة.. في السوق.. في المدرسة.. في الدوائر والمؤسسات.. وفي منحنيات الحياة وتفاصيلها كافة.

فلو أن المسلمين التزموا بمطالب الأخلاق الإسلامية، وقيم السلوك الإيماني؛ لعاشوا أجمل حياة وأسعدها على الإطلاق.. ولتذوَّقوا شيئًا من نعيم الجنة في الأرض قبل انتقالهم إلى الآخرة لكي يتلقوا ثمرة عملهم هناك. لنتذكر بعض مقاطع سورة الحجرات: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن

يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٠ - ١٣].

لا غِيبة.. لا تنابز.. لا سخرية.. لا تجسُّس.. لا ظنون.. لاحكم على الآخرين بالشبهة.. لا اقتتال بين أخوة الإيمان.. لا مصادرة للآخر أيًا كان عرقه أو دينه..

ولنتذكر حشودًا من الآيات منبثة في شرايين القرآن ترفض النفاق والرياء والكذب والغش والتشهير والسرقة والخيانة وهتك الأعراض.. وتستخدم أقصى صيغ الوعيد والتنديد، وتنذر بأشد أنواع العقاب لمن يتعاطى ممارسات السوء هذه.. وغيرها كثير..

وبالمقابل تتمركز في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ قيم التوحد، والأمانة، والصدق، والعدل، والوفاء، والإخلاص، والمحبة، فتجعل من الحياة الاجتماعية حالة نموذجية ما عرفتها أمة من الأمم عبر تاريخ البشرية الطويل.. حالة تحدث عنها الفلاسفة وعلماء الأخلاق في جمهورياتهم

المثالية، ومدنهم الفاضلة، ويوتوبياتهم الحالمة، ولكنها ظلَّت معلقة في سماء المثل والأحلام، ولم تعرف النزول إلى أرض الواقع لكي تعيد تشكيله كما تحلم وتريد.

أما هنا في الخبرة الإسلامية فإنه التحقق المدهش على أرض الواقع؛ لأنه ليس أماني ولا ترفًا ولكنه جزء أساسي في البنية الدينية لهذه الأمة.

وبمجرد أن نرجع إلى تراثنا الخصب في مجال الرقائق وآداب السلوك والخبرة الروحية فإننا سنجد أنفسنا أمام حالات لا يحصيها عدّ، استطاعت القيم الخلقية والسلوكية الإسلامية أن تنزل بها إلى قلب الحياة وأن تنشئ بيئات ومجتمعات بلغت القمة في أخلاقها وآدابها.

ويأسف المرء، ويتملكه الحزن، وهو يعاين ما يجري في المجتمعات الإسلامية عبر اللحظات الراهنة.. زمن انكسارنا الحضاري.. فيجد نفسه أمام حالة معاكسة.. إبحار في الاتجاه المضاد في الكثير الكثير من مفردات حياتنا الأخلاقية والسلوكية.. داخل الأسرة.. بين الجار والجار.. في الزقاق.. في الحي.. في الطرق العامة.. في الأسواق والدوائر والمعاهد والمؤسسات .. وفي كل حنيّة من حنيات حياتنا الاجتماعية.. بل حتى داخل المساجد نفسها!!

ويزداد غمًّا وكربًا وهو يجد الغربيين الذين مرقوا عن

الدين يمارسون العديد من القيم الإيجابية ويتشبثون بها، بغض النظر عن دوافع الممارسة والتشبث.. وكلنا يذكر من بين العديد من القيم: الصدق في المواعيد.. الإخلاص في العمل.. البسمة الحانية على الوجوه.. الكلمة الطيبة المعلقة على الشفاه.. وإماطة الأذى عن طريق الناس..

أليست هذه وغيرها كثير، مما تلقيناه من تعاليم الرسول المعلم ﷺ؟ ألسنا نحن الأجدر بها؟

فما الذي حدث لكي تنقلب الحالة على رأسها، ويكون هذا الذي نراه ونلمسه في حياتنا الاجتماعية صباح مساء؟

* * *
* *
*

حول معجزة الفتح

القوة الهائلة التي دفعت العرب المسلمين إلى فتح العالم وتحدِّي جغرافيته تثير الدهشة.. لكن هذه الدهشة سرعان ما تزول إذا عرفنا الدافع الكبير الذي كان يقف وراء هذه القوة، ويشحنها، ويمدّها بالوقود.

إنها العقيدة التي تتمحور عند شعار (لا إله إلّا اللَّه).. هذا الشعار الذي يستأصل من نفس المؤمن ووجدانه وعقله كل صيغ التحكّم والقهر والتردّد والخوف والاستلاب، ويدفعه حرًّا طليقًا لا يصدُّه شيء أو قوة في هذا العالم.

تحرير حتى الأعماق من ظلال الصنميات والطاغوتيات.. وإيمان مطلق بأن اللَّه سبحانه وحده هو الذي يحكم هذا الكون، ويتحكم بمصائره ومقدراته، وأن الإنسان ما هو إلا ستار لقدرته وأداة لمشيئته، يفعل بها ما يشاء، ويوجهها حسبما يشاء، ويختم على مصيرها كما يشاء.

وليس الموت أو الشهادة سوى حلقة، أو نقلة، أو لحظة عبور من حال إلى حال، ومن مرحلة إلى مرحلة، في خارطة طويلة ممتدة مرسومة في علم اللَّه.

من هنا كان الاندفاع الكبير، وبشعار (لا إله إلا اللَّه) هذا

الذي يملك القدرة على نقل الجبال من مواضعها، كما يقول رجاء غارودي في (وعود الإسلام): « تمكَّن الفاتحون من إزالة العروش، والإطاحة بالأكاسرة والقياصرة، وتغيير خرائط الدنيا.. في مدى زمنيّ قياسيّ »..

والعجيب أن الفاتحين العرب ما كانوا يعرفون سوى القتال البرّي الذي تمرّسوا على بعض أساليبه في الجاهلية والإسلام.. ولكن الذي حدث أنهم استجابوا لتحديات الجغرافيا، وقاتلوا في الجبال والغابات والمستنقعات والبحار والأنهار.. وانتصروا..

يبدو أن شعار (لا إله إلّا اللَّه) لم يدفعهم فقط إلى الموت والشهادة، ويجعلهم يتسابقون إليهما، ولكنه علمهم - أيضًا - كيف يتعاطون مع الحالات المختلفة في جبهات القتال ويتفوقون عليها..

هذا هو السرّ الذي تنبض به العقائد والأديان.. إنها تدفع.. وتعلّم.. وتمكّن من الاستجابة للتحديات.. في وقت واحد.. وبهذا تصنع الأعاجيب.

ولنتذكر - أيضًا - أن الرسول القائد ﷺ برؤيته الاستراتيجية الثاقبة حاول أن ينبّه أصحابه وجنده إلى هذا.. إلى أنهم سيجدون أنفسهم مضطرين لممارسة صنوف من القتال قد تكون جديدة عليهم، فَرَاحَ يؤكِّد عليها، ويدعوهم

للتأهب أهبتها وأخذ الاستعداد لها..

ورغم أنه كان يمارس تدريبهم في المدينة، في الأشهر الأولى للهجرة، حيث لم تكن دولة الإسلام قد تجاوزت أطراف يثرب، وحيث لم يكن الأمر يتطلب سوى خبرات القتال البريّ، فإنه ﷺ كان يحدّث أصحابه ويحضهم على فنون القتال البحري ويقول: « **غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البرِّ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية جميعًا** »[1].

يومذاك.. كانت البحار بعيدة، ولكن بصيرة رسول اللَّه ﷺ، كما علمنا دائمًا، تتجاوز المرحلي العابر إلى الممتد البعيد، وتخطط للمديات المتطاولة.. وكان يعرف جيدًا أن أيام القتال البحري ستجيء، وستجيء معها أنماط أخرى من القتال والتحديات.. فأراد أن يعد أصحابه لذلك.. ولقد كان أصحابه- رضي اللَّه عنهم - عند حسن الظن..

* * *
* *
*

(١) رواه الحاكم.

عندما تصير كل فاعلية جهادًا في سبيل اللّـه

حدثني مدرّب لكرة القدم يشرف على تدريب فريق أحد الجوامع، وهو فريق متواضع كل أعضائه من الدعاة الذين لا تفوتهم صلاة، ولا تشغلهم تجارة أو بيع عن ذكر اللّه.. أنه دخل بفريقه بطولة دوري أحياء المدينة لكرة القدم، بعد أن قام بإعداده الأسابيع الطوال.. فأول ما لاحظه التزام اللاعبين الصارم بالحضور في مواعيد التدريب، وقيامهم بالمهمات التدريبية الملقاة على عاتق كل منهم بأقصى درجات الإتقان والإخلاص.

ثم لما بدأت فعاليات الدوري راح الفريق، على جدّته الميدانية، يكتسح الفرق المنافسة الواحدة تلو الأخرى.. كان أحدهم وهو يتابع الكرة يبذل أقصى درجات الجهد في التعامل معها من أجل الاقتراب بها من هدف الخصم.. كان كمن يمارس عملًا دعويًّا أو جهاديًّا يتطلَّب الإحسان والإتقان في مستوياتهما العليا من أجل كسب رضا اللّه سبحانه!

وكانت النتيجة في نهاية الموسم أن يفوز الفريق إياه ببطولة الدوري!

ذكرني هذا بحالة أكبر بكثير، وأخطر بكثير تثير الإعجاب هي الأخرى: عندما فاز الرفاهيون في انتخابات بلدية

إسطنبول في تسعينيات القرن الماضي وراحوا يمزجون الليل بالنهار لتقديم أفضل وأوسع الخدمات لتغطية مطالب مدينة من أكبر مدن آسيا.. بل العالم على امتداده.

وحدثنا أحدهم بأنهم استطاعوا في فترة قياسية أن يوصلوا خدمات الماء والكهرباء إلى ضواحٍ وقرًى بعيدة لم تكن قد ذاقت طعم الماء العذب أو عرفت الكهرباء..

لقد كانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أمانة كبيرة ويتعاطون مع مفرداتها ومطالبها كما لو أنهم يمارسون مهمة جهادية يستنفر من أجلها كل ما يمكن للإنسان أن يقدمه.

ومن نجاحهم الباهر في بلدية إسطنبول قفزوا إلى حكم تركيا كلها من أقصاها إلى أقصاها..

لقد كان الشعب التركي يعرف جيدًا من يخدمه، ويبذل جهده المخلص لتلبية مطالبه وتنفيذ حاجاته الملحة.. وهو يملك حاسة مرهفة تجعله يمنح أصواته لمن يستحقها فعلًا.. وهكذا تحققت المعجزة وكان هذا الذي كان..

ولا يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل هو يمضي لتحقيق معجزة أخرى لا يصنعها إلا الإيمان، بما يبعثه في نفوس العاملين من حرص وتقوى ويقظة ضمير، وخشية من عقاب اللَّه وطلب لثوابه..

إنها حماية المال العام من السرقة والابتزاز، وهي بوابة

السوء الكبرى التي تستنزف الدخل القومي في الكثير من الدول والبلدان.

ها هنا، في الحالة الإسلامية، يصير التقشف وحراسة المال العام من أي يد قد تمتد إليه بليل لكي تختلس منه شيئًا أو تنفقه في غير موضعه، واجبًا دينيًّا يصبح المسؤول المسلم نفسه ملزمًا بتنفيذه والسهر عليه..

ولنا أن نتصوَّر كيف سيكون المردود كبيرًا كبيرًا على مستوى حماية الدخل القومي من الهدر والابتزاز، ومستوى توظيفه بالصيغ المدروسة والمُحكمة لتقديم أوسع الخدمات وإنجاز أكبر المشاريع.

وإنني لأتذكر - على سبيل المثال - ما حدث في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) - رحمه اللّه - في هذه المسألة بالذات: حماية المال العام من أية محاولة للهدر والابتزاز، واعتبار ذلك عملًا مُقدَّسًا.. وكيف أن هذا منح الدولة دخلًا موفورًا، وعوضها عن نفقاتها كافة، ومكنها من تقديم خدماتها المدهشة في كل المجالات دون أن تتعرض مالية الدولة للاهتزاز..

ولو عرفت الجماعات والشعوب أين تتحقق مصلحتها لهرعت إلى دعاة الإسلام في كل مكان تمنحهم أصواتها؛ لكي يحققوا ما عجز الآخرون عن تحقيق عشر معشاره..

نيرفانا لبعض المسلمين

بعض المنتمين لهذا الدين بحاجة إلى نيرفانا هندية تزيل شحوم الورم والإحساس السرطاني بالذات.. رياضة نفسية قاسية ومتواصلة، من أجل التخفّف وإلغاء (الأنا) التي يعرف شياطين الجن والإنس كيف يتسلَّلون منها إلى المؤمنين!

ولقد كان أحد أسباب التصوّف الإسلامي هو إعلان الحرب على (الأنا) وتضييق الخناق عليها، والتجرُّد لمحبة اللَّه سبحانه وطاعته.. ومع ذلك كنا نجد العديد من المتصوفة لا يكفُّون من الحديث عن أنفسهم.. وإنجازاتهم بإعجاب مبالغ فيه يثير القرف والاشمئزاز في نفوس سامعيهم.

وأعـرف عـددًا من دعـاة الإسـلام لا يـكفـون - هـم الآخرون - من الحديث عن أنفسهم وإنجازاتهم، وكأنهم يحرقون أوراقهم بأيديهم فلا يدخرون شيئًا خالصًا للَّه..

ولقد أخذت هذه الحالات (النرسيسية) - إذا صحّت التسمية - تزداد انتشارًا بمرور الأيام، وأصبح الإنسان يلتقي - عبر المجالس - أناسًا همّهم الأكبر هو أن يستأثروا بالحديث، أو أن يدور الحديث حول ذواتهم.. ورغم أن الآخرين يصغون إليهم بانتباه - بحكم مطالب التأدُّب في

المجالس - فإنني على يقين من أن القرف يملأ نفوسهم وحلوقهم وهم يتحلقون حول هذا النمط من الأدعياء.

لا أدري كيف يبيح المسلم لنفسه أن يتحدث عن نفسه إلّا إذا سُئل بطبيعة الحال.. ألا يعلم أن كيل المديح للذات يجلب غضب اللّٰه ورسوله، ولعنة الناس أجمعين؟

إنها صفقة خاسرة على أي وجه من وجوهها.. وإنها لخسارة مزدوجة بمعايير الآخرة والدنيا.. أما الأولى فأمرها معروف.. وأما الثانية فلأن الذين يمارسون اللعبة يكسبون كراهية الآخرين.. وحقدهم.. والنفور منهم.. بدلًا من الإعجاب والتقدير اللذين كانا في ظنهم أنهم سيحصلون عليهما.

ثمة حديث نبوي صريح وحاسم يُحذِّر من هذا المنزلق الخطير ويعد أصحابه بمصير تقشعر له الجلود.. قال رسول اللّٰه ﷺ: **« إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكنك قاتلت ليقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن. فقال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمتَ العلمَ ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن**

ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.. »[1] إلى آخر الحديث الشريف.

وكان المفروض بالنسبة لبعض الكُتَّاب والدعاة الإسلاميين في الأقل، أن يتعلَّموا منه.. أن يعودوا إلى أنفسهم فيرغموها إرغامًا على الكفِّ عن هذا التغنِّي المرضيّ بالذات..

دع الآخرين يتحدَّثون عنك وعن إنجازاتك ولا تتحدث أنت عنها.. هكذا كنت أقول دائمًا لعدد من المعارف والأصدقاء، من أولئك الذين آثروا الدخول في اللعبة، واعتقلوا أنفسهم في زنزانة (النرسيسية): الأنا..

كثيرون منهم لم يأبهوا للنصح، وواصلوا حياتهم وفق التقاليد نفسها.. يبدو أنها - بالنسبة إليهم - حالة مرضية يصعب التحرّر منها..

والوقاية خير من العلاج.. هكذا أرادها رسول اللّه ﷺ، ولكن ما دام الفأس قد وقع في الرأس، كما يقول المثل، فلابد من العلاج..

والعلاج هو (النيرفانا) التي تعرف كيف تزيل شحوم (الأنا) من النفس، وتضيّق الخناق على ورمها السرطاني الجائع!!.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لماذا؟

بمجرد أن تحررت فيتنام الجنوبية من قبضة الاستعمار الأمريكي عام (١٩٧٦م) أعلنت وحدتها مع شقيقتها الشمالية.. والدول الأوربية، رغم تباينها العرقي والجغرافي والديني استطاعت أن تقيم سوقًا مشتركة، وتصدر عملة واحدة، وتعلن اتحادًا أوربيًّا راحت الدول المنضمة إليه تزداد عددًا بمرور الأيام.

والأمة العربية، بدولها البضع والعشرين لم تستطع، رغم تحرُّرها من الاستعمار، أن توحّد شبرين من الأرض.. جرّبت عدة محاولات وحْدوية، وأخرى اتحادية أخفقت جميعًا، اللَّهم إلّا تجربتي اليمن والإمارات العربية المتحدة.

كنا في الماضي نُعلِّق مأساة تجزُّؤنا على مشجب الاستعمار، فلما رحل الاستعمار وزالت الأسباب، لم نسارع إلى التوحُّد - كما فعلت فيتنام - بل على العكس ازدادت الدول العربية عددًا..

أهي لعنة كتبت علينا أن نظل منقسمين على أنفسنا، وأن تصبح فكرة الوحدة أو الاتحاد حلمًا طوباويًّا غير ممكن التحقيق على الإطلاق؟ أم أنها العودة إلى الوراء في رحلة تاريخية معاكسة تجتاز عشرات القرون لكي تضعنا في

حالة التجزُّؤ والصراع القبلي المتطاول زمن العرب قبل الإسلام؟

بعض المتشائمين يفسر الظاهرة بأن القوى العظمى لا تريد ذلك؛ كي لا تشكل الدولة العربية الموحدة قوة ذات تأثير قد يلحق الأذى بمصالح هذه القوى ويضعها في دائرة التهديد وعدم الاستقرار.. وهذا صحيح إلى حدٍّ ما..

ولكن من قال إن إرادة القوى العظمى لا رادّ لها، وأن ليس بمقدور قوة في الأرض أن تتحداها وتتجاوز السدود التي تضعها في طريق الشعوب المستضعفة، حيث شهدنا - ولا نزال - أُممًا أخرى استطاعت أن تحقق ما تريد رغم أنها لا تملك عُشْرَ معشار ما يملكه العرب من إمكانات، ليس الموقع الإستراتيجي، والنفط، والثروات المعدنية والمائية، والقدرات الزراعية سوى شواهد محدودة منها فحسب؟!

ومهما أوغلنا في تحليل الأسباب فلن نعثر على مبرر واحد يجعل الخارطة العربية ممزقة إلى بضع وعشرين دولة ترفرف عليها بضع وعشرون راية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن عددًا من هذه الأبضاع راح يصطرع فيما بينه ويقود الأمة إلى مزيد من الضعف والتمزق والهوان.

والتاريخ قد لا يمنح فرصه مرتين، فلقد أتيحت لنا عبر النصف الثاني من القرن الماضي فرص عديدة للوحدة والاتحاد فلم نعرف كيف نهتبلها، إلى أن حلَّت اللعنة في أخريات القرن الماضي ومطالع القرن الجديد، وتغيرت موازين القوى العالمية بزوال الاتحاد السوفياتي، ونشوء النظام العالمي الجديد الذي تفردت بقيادته دولة واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية، وراحت تسعى في ظلال العولمة ومن خلال منطوق صراع الحضارات، إلى فرض هيمنتها على الشعوب والدول الضعيفة ، ليس هذا فحسب، بل إنها - من أجل إحكام قبضتها على المستضعفين في الأرض - تسعى الآن إلى تنفيذ ما يسمى بتجزئة المجزَّأ، أي تفتيت الدول العربية إلى أقاليم عرقية أو مذهبية أو جغرافية، ضعيفة واهنة لا تكاد تملك ثقلًا حقيقيًّا على الخارطة السياسية للعالم، بل لا تكاد تملك المقومات الأولية لمفهوم الدولة.

هل معنى ذلك أننا قد نصبح في مستقبل قريب أو بعيد ثلاثين أو أربعين، أو ربما خمسين دولة عربية؟!

وكان بمقدورنا أن نتجاوز هذا المصير المحزن يوم كان الظرف التاريخي يعطينا الفرصة للتوحد..

ومع ذلك كله فإن الظرف التاريخي الجديد نفسه لا يملك، بحكم قوانين الحركة التاريخية، مقومات البقاء.

فها هي ذي محاولات شتى لاستقطابات دولية تطل برأسها، وقد تخرج النظام العالمي الجديد من التاريخ.. وحينذاك قد تتاح الفرصة كرة أخرى للأمة الممزقة كي ترجع إلى وحدتها ويتحقق الحلم الكبير: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤١].

* * *
* *
*

شيء عن السخف الاستشراقي

لم يكن موقف الإسلام من معطيات البيئة العربية، التاريخية والجغرافية، التي تنزل فيها، سلسلة من الأفعال وردودها، كما استنتج عدد من المستشرقين وفق منهج يدعو للسخرية والرثاء..

إن الإسلام - بداهة - هو استمداد من فوق.. استمداد يعتمد على رؤية معرفية تقوم على الوحي الذي يملك نظرة كلية شاملة، تتجاوز أسر المكان والزمان، ونسبياتهما الجغرافية والتاريخية، المتغيرة والمرحلية والمحدودة، وتحدّد مواقفها إيجابًا أو سلبًا، في ضوء معايير شمولية ثابتة تقوم على توحيد اللَّه سبحانه، وتحرير الإنسان، والتخطيط لقضيته الكبرى في الأرض.

من هذا المنطلق كان الإسلام، منذ لحظات تشكله الأولى في العصر المكي، وحتى اكتماله في العصر المدني، يتعامل مع المعطيات الجغرافية والتاريخية للبيئة العربية التي تنزّل فيها، فيأخذ ويقرّ ما ينسجم وثوابته ومعاييره المذكورة، ويرفض ما لا ينسجم حتى ولو كان يملك حضورًا مؤكدًا وكبيرًا كظاهرة الشرك السائدة زمن الجاهلية، فيما يسقط مقولة المستشرقين إياها والتي تدعو إلى السخرية والرثاء

بـخصـوص الأفعـال وردودهـا؛ إذ يقومون بتفكيك الجهد الإسلامي في عصر الرسالة، ويُصنِّفون مفرداته وفق نمطين.. أحدهما يجيء استجابة محتومة لمطالب البيئة، والآخر يمثل ردّ فعل عليها.

ولا زال الكثيرون يذكرون ذلك الخبط الذي وقع فيه عدد من المستشرقين الماركسيين زمن تمكُّن الشيوعية وانتشارها في الأرض، والذي ينطوي على جملة من الاستنتاجات وفق المنهج المذكور لا تستحق أي قدر من الاحترام. ونحن نوردها ها هنا؛ لأنها تمثل وسيلة إيضاح مكشوفة لسخف المنهج الذي يعتمده بعض المستشرقين. لقد رأى بعضهم أن المجتمع العربي في مكة والمدينة شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق، بينما يرى (بيجو لفسكايا) أن القرآن يُشعر بتركز مرحلة ملكية الرقيق ويذهب مع (بلاييف) إلى أن المرحلة الإقطاعية هي من آثار اتصال العرب بالشعوب الأخرى. هذا ويرى آخرون أن المجتمع الإقطاعي بدأ بالتكوّن فعلًا، وتبع هذا قلق في التفسير؛ فمنهم من يرى أن الإسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وأرستقراطية الإقطاع، مثل (كليموفيج)، ومنهم من يراه في مصلحة أرستقراطية الرقيق فقط. في حين أن البعض مثل (بلاييف) يرى أن الإسلام المتمثل بالقرآن

لا يلائم المصالح السياسية والاجتماعية للطبقات الحاكمة فلجأ أصحابه إلى الوضع في الحديث لتسويغ الاستغلال الطبقي الجديد.

وفي حين أن بعضهم يقول: إن الأرستقراطية وحَّدتْ القبائل العربية؛ لتحقيق أغراضها، يقول آخرون: إن القبائل كانت تتوثب للوحدة، فجاء الإسلام موحدًا يعبر عن ذلك التوثب.

ويضطرب الموقف من منشَأ الإسلام ذاته، فبينما يدعي (كليموفيج) أن محمدًا ﷺ واحد من عدة أنبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد، وأراد توحيد القبائل، يذهب (تولستوف) إلى نفي وجود النبي العربي ويعده شخصية أسطورية. وبينما يعترف البعض بظهور الإسلام، يذهب (كليموفيج) إلى أن جزءًا كبيرًا منه ظهر فيما بعد في مصلحة الإقطاعيين، ونسب أصله إلى فعاليات معجزة لمحمد. وتجاوز (تولستوف) إلى أن الإسلام نشأ من أسطورة صنعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة، وهي أسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية!!

ويخطر على البال - كذلك - تلك المقولة الفجّة التي يذهب أصحابها إلى أن تأكيد القرآن الكريم على العذاب في نار جهنم في العديد من سوره وآياته، إنما جاء انعكاسًا

لحرِّ الصحراء وسعيرها، وكأن ليس هناك في القرآن الكريم نفسه إلى جانب الحرِّ الملتهب إشارات إلى الزمهرير الذي هو النقيض تمامًا..

كما يخطر على البال مقولة عدد من المستشرقين من أن محمدًا ﷺ لم ينتقل إلى الدعوة العالمية إلّا بعد أن أصبح يملك دولة وجيشًا.. وينسون أن الآيات التي وردت بخصوص عالمية الإسلام تنزلت جميعًا في العصر المكي، يوم كان المسلمون لا يملكون دولة ولا جيشًا..

تُرَّهَات المستشرقين والوضعيين كثيرة، وكيدهم لهذا الدين ونبيّ هذا الدين لا نهاية له، وهو يركب لتحقيق هدفه كل مركب، ويعتمد كل أسلوب مهما كان على درجة من السخف والتهافت.

* * *
* *
*

شيء عن مفهوم التوحيد

يقول الشاعر والفيلسوف الباكستاني المسلم (محمد إقبال): « حين أتذكر بأني مسلم أرتعد لأني أعرف جيّدًا تبعات الإيمان بـ (لا إله إلا اللَّه).. ».

هذه رؤية بصيرة لمفهوم الانتماء الإسلامي الذي يتمحور عند كلمة التوحيد التي تضع المسلم في حالة استنفار دائم.. إنذار من الدرجة القصوى؛ لملاحقة كل الصيغ الخاطئة، والخبرات الملتوية، والضلالات التي تسعى لطمس ألق التوحيد في عقله وروحه ووجدانه.. والإبقاء على هذا المصباح الأخضر متوهجًا وضيئًا، قديرًا على إنارة الطريق، وتحديد الصراط، وحماية الإنسان من الانزلاق باتجاه الطرق المعوجّة التي تقوده إلى الضياع..

إن تكرار عبارة (لا إله إلا اللَّه) على الألسنة دون أن تمضي لكي تمس شغاف القلوب، أفقد هذه الحقيقة الكبرى الكثير من ألقها وتوهجها، وغطى على الكثير من دلالاتها التي إذا ما أدركها الإنسان المؤمن وتعامل معها بالجدِّ المطلوب، فإنه سيعيد تشكيل وجوده من جديد، وسيضع نفسه في حالة توفّز دائم، وتوتر روحي موصول، يمكّنه ليس من التوحُّد والائتمان الذاتي فحسب، بل يمنحه طاقة هائلة

في التعامل مع الخارج وإعادة صياغته بما يجعله يتوافق مع نبض التوحيد.

إنني أتذكر هنا عبارة المفكر الفرنسي (المسلم): رجاء غارودي في كتابه القيّم (وعود الإسلام): « لا إله إلا اللَّه، هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي، القدير على تحويل الجبال عن مواضعها، والذي يعني الكثير على مستوى مستقبل البشرية ».

وأتذكّر - كذلك - عبارات المفكر الإسلامي الدكتور إسماعيل الفاروقي - رحمه اللَّه - في كتابه (جوهر الحضارة الإسلامية): « التوحيد هو الذي يُعطي الحضارة الإسلامية هويتها، هو الذي يربط بين أجزائها، هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهِّرها، فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها.

قديمًا وحديثًا كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد؛ ذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية..»

« التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن (لا إله إلا اللَّه) هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة اختصارًا

لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني، وأجلّها. فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، أن أمكن صبّ كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام - وهو أقصره طولًا وأكثره دلالة - كان هذا في (لا إله إلا اللّه) عنوانًا للتوحيد، وبالتالي للحضارة الإسلامية ».

وفي ضوء هاتين الرؤيتين النافذتين لمفهوم التوحيد يمكن أن ندرك البعد الحقيقي لهذا المفهوم، وندرك معه مغزى عبارة (إقبال) آنفة الذكر: « حين أتذكر بأني مسلم أرتعد، لأني أعرف جيدًا تبعة الإيمان بـ (لا إله إلا اللّه).. ».

إننا كمسلمين نملك كنزًا غاليًا لا يُقدَّر بثمن.. دُرَّة فريدة هي الوحيدة من نوعها في العالم.. إنها حقيقة التوحيد التي يتمحور حولها ويتنامى المعمار الإسلامي في اتجاهاته كافة.. يتعالى في البناء وهو يحمل نبض هذه الحقيقة، ويتشكل بقوتها التي لا يصدّها شيء في هذا العالم.

ونحن الأمة الوحيدة في الدنيا من قُدِّر لها أن تحمل أمانة التوحيد وتحميها من كل صيغ الشرك الخفية والمعلنة.. وهي مهمة ثقيلة، لكن المسلمين - في معظم الأحيان - ظلوا أكْفاء لها والحمد للّه..

وسيجيء اليوم الذي يرنو فيه العالم الضائع إلى كلمة الخلاص: التوحيد؛ لكي ينقذه من كل صيغ الابتزاز

والاستلاب.. يُحرِّره من كل أنماط الطاغوتيات والربوبيات الزائفة.. يفك ارتباطه المذلّ بالحتميات والقهريات.. ويخرج به من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده.. ولن يكون ذلك إلّا بـ (لا إله إلا اللَّه)..

وسيجيء ذلك اليوم حتمًا.. يقينًا سيجيء!!

* * *
* *
*

دعوة مؤكدة للاكتشاف

إن جانبًا من أهم جوانب الحضارات زمن تألّقها هو سيطرة الرغبة في الاكتشاف على عقول أبنائها.. وهكذا فإن أوربا وأمريكا اليوم تريدان أن تكتشفا الزهرة والمريخ بعد أن وصلتا إلى القمر واكتشفتا القطبين وأعماق البحار.

والمسلمون أيام ازدهارهم الحضاري كان فيهم ابن جبير وابن بطوطة وابن فرناس وغيرهم كثيرون جابوا الأرض، واجتازوا البحار والمحيطات، وأوغلوا في مجاهل القارات.

فإذا جئنا إلى كتاب اللَّه فإننا واجدون فيه دعوة صريحة للاكتشاف منبثة في ثناياه من بدئه حتى منتهاه.. دعوة للاكتشاف في الأنفس والآفاق: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١] ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

دعوة للتنقيب في أعماق الأرض واجتياز أقطار السموات: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ... ﴾ [العنكبوت: ٢٠] ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا

بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [يونس: ١٠١].

دعوة للتوغل بعيدًا بحثًا عن السنن والنواميس التي تسيّر حركة التاريخ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١].. دعوة لكسر القشرة الخارجية للأرض واكتشاف أسرارها وطاقاتها ومذخوراتها ﴿ ...وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].. دعوة للكشف عما سخّره اللّه لنا في هذا العالم من نعم وخيرات وتوظيفها لإعمار الدنيا: ﴿ ...وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [النحل: ١٢]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ... ﴾ [النحل: ١٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ [الجاثية: ١٣].

حيثما تلفتنا وجدناها دعوة صريحة للاكتشاف إذا أريد للأمة المسلمة أن تؤدي وظيفتها الاستخلافية في العالم المُسخَّر لها والذي أنيطت بها مهمة إعماره وترقيته: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿... ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

إن هذه الأمة لا يمكنها بحال من الأحوال أن تمارس مهمتها العمرانية في العالم الذي استخلفت عليه، وبالوتائر المطلوبة، ما لم تلتحم بفيزياء العالم، وتكتشف سننه ونواميسه وطاقاته وتسخرها لوظيفتها تلك.. والقرآن الكريم من أجل ذلك كله يستجيش كل طاقات الإنسان العقلية والحسيّة للتحقق بأكبر قدر ممكن من البحث والتنقيب والاكتشاف.

ويوم أن انطفأت شعلة التنقيب والاكتشاف في عقول الآباء والأجداد، دخلنا دائرة الانكسار الحضاري وخرجنا من التاريخ، بعد أن كنا ، بتوقّد هذه الشعلة، قد ملكنا الدنيا وأصبحنا سادتها.

إن الدنيا والكون القريب لا يسلمان قيادهما إلّا للأكثر فاعليةً و (شطارة) وعلمًا، وإن ما تنطويان عليه من قوًى وطاقات إنما هي سلعة مباحة لمن يعرف كيف يعمل عقله ويمدّ يديه.. وإلّا فهو الخسران المبين ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

شيء عن مهمة الأمة المسلمة في العالم

أحبّ أن أقف لحظات عند مهمة المسلم والأمة المسلمة في هذا العالم.. إنها - باختصار شديد - مهمة حضارية.. مشروع حضاري كُتِبَ على المنتمين لهذا الدين أن ينفذوه في واقع الحياة ويحملوه إلى البشرية كافة؛ لكي يحيا الإنسان حياة تستحق أن تعاش بما تنطوي عليه من عمق روحي، والتزام أخلاقي، واحترام لإنسانية الإنسان.

ولنتذكر كيف أن القرآن الكريم وضعنا في قلب الفعل الحضاري، أي أراد منا أن نكون أمة متحضرة، وذلك من خلال مثلثه المعروف بأضلاعه الثلاثة: التسخير والاستخلاف والاستعمار (بالمفهوم اللغوي لا الاصطلاحي).

فما أكثر الآيات التي تتحدث عن تسخير العالم للإنسان من مثل ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [النحل: ١٢]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ... ﴾ [النحل: ١٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ [الجاثية: ١٣].

وما أكثر الآيات التي تتحدث عن استخلاف الإنسان

في هذا العالم من مثل ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ﴿ ... ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

ولعل هناك من يتساءل: ما علاقة هذا كله بالنشاط الحضاري؟ والجواب هو أن القرآن الكريم يؤكد في سياق ثالث أن مهمة الإنسان المؤمن في هذا العالم المُسخَّر الذي استخلف عليه هي التنمية والإعمار والبناء والتطوير لقوله جلّ شأنه: ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، أي: خلقكم لممارسة مهمة عمرانية حضارية تستهدف جعل العالم بيئة صالحة للهدف الأساسي من خلق الإنسان وهو عبادة اللَّه سبحانه، ليس بالمفهوم الشعائري الصرف المنعزل عن الحياة، المنسحب من العالم، وإنما بمفهوم العبادة الإسلامي الواسع الشامل الذي يستهدف جعل كل عمل أو نشاط علمي أو عمراني أو حضاري في نهاية الأمر ممارسة تعبدية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

إذن فنحن بإزاء عالم مُسخَّر لنا، وقد استخلفنا عليه لكي نعمره ونطوره؛ ليكون بيئة صالحة لعبادة اللَّه سبحانه بمفهومها الإسلامي الحضاري الشامل.

وفي ضوء هذه الحقائق الساطعة التي لا يمكن أن يشكك فيها أحد، يبدو الإسلام مشروعًا حضاريًّا، ويبدو المسلم في هذا العالم صاحب رسالة حضارية في مجابهة كل الحضارات الكافرة الملحدة، أو الدينية المحرفة، التي أذلَّتْ الإنسان واستعبدت الشعوب، وتجاوزت القيم الخلقية، ووضعت الأسلاك الشائكة بين الأرض والسماء، وساقت البشرية إلى الحفر الضيّقة التي تكاد تختنق فيها..

إننا كأمة وسط أريد لها أن تكون شاهدة على البشرية، مدعوون للمشاركة العالمية في المصير، والعودة بالإنسانية إلى وضعها الطبيعي قبل أن تتفرق بها السبل..

ومفكرو الغرب وعلماؤه وفلاسفته ومؤرخوه وأدباؤه، يقولون هذا ويؤكدونه المرة تلو المرة، قبل ومع وبعد، ما يقوله المسلمون أنفسهم.. إن الإسلام قادم بمشروعه الحضاري.. وفيه وحده الخلاص..

* * *
* *
*

تعالوا نحسب

تعالوا نحسب ما تبقَّى من عمر كل واحد منا نحن الذين تجاوزنا الستين، عشرون سنة على الأكثر.. أليس كذلك؟

حسنًا.. لنطرح منها عشر سنوات من النوم، ونضيف إليها خمس سنوات أخرى مع الأمراض والأسقام التي تمنع الإنسان من أن يحيا حياة طيبة ولو في حدودها الدنيا، فضلًا عن أنها تعيقه عن العمل والنشاط ، فما الذي يتبقى؟ خمس سنوات فقط.. أليس كذلك؟

فهل تستحق هذه السنوات الخمس كل هذا الهم، والقلق، والحزن، و اللُّهاث، والحرص، والجبن، والمذلة.. إلى آخر ما هنالك من منغصات تجعل الحياة مُرة كالعلقم؟

خمس سنوات فحسب، ألا يدفع مداها الزمني القصير جدًّا، الإنسان إلى أن يراجع نفسه، ويعيد النظر في حساباته، فيغيِّر معادلات هذه الحياة وأرقامها بما يتلاءم مع هذا المدى الزمني المحدود؟

أن يكفّ عن اللُّهاث.. والقلق.. أن يتخفف من الهموم والأحزان.. أن يتمَّرد على دائرة الجبن والمذلة.. وأن يرتفع فوق هذا كله، حرًّا، متوحدًا، آمنًا مطمئنًّا وسعيدًا.

كم منا فعل ذلك، وحسبها قبل ألّا يقدر على الحساب؟

لا أحد!!

لكأن الحياة الدنيا تملك سحرًا عجيبًا.. نوعًا أسطوريًا من المغناطيسية التي تشدّ الإنسان إلى الأرض، وتسمّر قدميه وعقله وروحه ووجدانه فيها.. حتى ليخيّل للكثيرين أحيانًا أنهم خلقوا لكي لا يموتوا.

والآن.. دعنا من الذين تجاوزوا الستين، ولم يتبق لهم من الحياة (الحقيقية) سوى خمس سنوات فحسب، ولنتراجع في سلّم الأعمار إلى من هم في الثلاثين أو الأربعين.. كم تبقى لهم وفق الحساب المذكور؟ عشر سنوات في الكثير! ألا يتحتم أن يدفعهم ذلك، هم الآخرون، إلى التحرر من كل صنوف التعاسة والشقاء والهموم والأحزان والقلق واللُّهاث، التي تجعل حياة الإنسان، حتى وهو في عزِّ شبابه، لا تستحق أن تعاش؟ وحتى لا يتهم هذا المنظور الذي يبدو للبعض متشائمًا، بالسلبية، فإن الحساب المذكور ينطوي بالضرورة على بعده الإيجابي.. إنه يجيء - لمن يملكون الحكمة - حافزًا على المزيد من العمل والإنجاز.. المزيد من الذكر والعبادة.. المزيد من تنمية الرصيد الدنيوي؛ لكي يخدمهم هناك يوم الحساب.. إذ ما دامت الفرصة المتبقية محدودة.. محدودة جدًّا.. فإن الذكي الذكي هو من يعرف كيف يوظفها لمصلحته.. ومصيره..

من أجل ذلك نادانا رسول اللَّه ﷺ، وحذّرنا في الوقت

نفسه من ألَّا نحسن توظيف الزمن المحدود المتاح لنا فقال: « **اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هَرَمِك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك** »[١]، وأن اللَّه سبحانه سائل ابن آدم يوم القيامة عن خمس: (**عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟**)[٢].

ومن أجل ذلك نبهنا القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا إلى تفاهة الحياة الدنيا، وقصرها وانصرامها، فقال: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] ووصف لنا هذه الحياة كما لو كانت مجرد حفل تعارف ينفضّ سامروه بعد ساعة أو ساعتين: ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، ونقل لنا جانبًا من حوار الإنسان مع الإنسان يوم الحساب: ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤] ، ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

ألا يدفعنا ذلك - مرة أخرى - إلى أن نعيد النظر في حساباتنا، وألّا نجعل الدنيا أكبر همنا، ومبلغ علمنا، كما كان يدعو الرسول المُعلِّم عليه أفضل الصلاة والسلام؟

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

(٢) رواه الترمذي والطبراني.

شيء عن المرأة في الغرب

في تقرير صادر عن مجلة اللوموند الفرنسية لعام (٢٠٠١م) تمت دراسة أوضاع المرأة في بلدان عديدة من العالم حول سوء معاملة المرأة.. الاغتصاب، البطالة، الدعارة، الاستئصال العرقي، وخرج التقرير بجملة من النتائج هذا جانب منها:

في الولايات المتحدة الأمريكية كل دقيقة تمر يضرب خلالها (٤) نساء على الأقل، وفي كل عام تغتصب (٧٠٠) ألف امرأة، وذلك من قبل المقربين منهن وليس الغرباء.

في فرنسا يُعاني على الأقل (٣) مليون من النساء من عنف الأزواج وحوالي (٤٠٠) امرأة يمتن من جراء العنف في العام الواحد، وذلك بدافع فرض سلطة الرجل عليها، وبسبب تعاطي الخمور، أو كردِّ فعل نفسي لعنف قد عانى منه الرجل خلال مراحل طفولته. وكذلك في فرنسا في كل يوم يتم اغتصاب امرأة على الأقل في باريس وحدها.

وهذه الأرقام لا تخص الفئة الفقيرة في تلك المجتمعات بل تمتد إلى سائر الفئات الاجتماعية.

وحسب مصادر الأمم المتحدة (٤) ملايين وأغلبهم من النساء يتم بيعهم في كل سنة في أمريكا، (٤٥٠) ألفًا

إلى (٥٠٠) ألف امرأة وطفل كانوا ضحايا لهذه التجارة في عام (٢٠٠٠م). والنساء الواقعات في شباك هذه المنظمات يتعرضن لأشكال مختلفة من التعذيب المستمر لإجبارهن على ممارسة الرذيلة والدعارة التي هي أول فعاليات الجريمة المنظمة في العالم. ولابد من الإشارة بهذا الخصوص إلى أن المرأة التي تقع ضحية هذه المنظمات، تفقد بشكل كامل وشبه أبدي تقديرها الذاتي لنفسها ولإنسانيتها.

الأمم المتحدة تعتبر أن الدعارة تشكل جزءًا من العبودية الحديثة. أما الحكومات المعنية فتهتم بهذه المشكلة بشكل آخر، فهي قلقة حول مسألة خرق القوانين المنظمة للهجرة والعمل.

خلال فترات الحرب والهجرات الإجبارية التي تتبعها، النساء هن الأضعف بين المهجَّرين، حتى إنه من السهل حرمانهن من الطعام الذي يوزع من قبل المؤسسات الإنسانية. ولكونهن بعيدات عن مجتمعاتهن الأصلية يكنّ عرضة بشكل أكبر للعنف والاغتصاب. حتى أن إحدى مراسلات الأمم المتحدة كتبت في عام (١٩٩٨م): إن العنف الجنسي ضد النساء يعتبر تأكيدًا لنصر الرجال ضد رجال المعسكر الآخر والذين لم يستطيعوا حماية نسائهم، وبذلك يكون انتهاك جسد المرأة رمزًا لانتهاك كرامة الرجل.

في مجموعة الاتحاد الأوربي النساء يتقاضين أجورًا أقل (٢٨٪) من الرجل في العمل نفسه، وعدم تكافؤ الفرص يبدو راسخًا وظالمًا.

في جميع البلدان الأوربية يوجد اختلاف في المستويات المهنية بين الرجل والمرأة، فهذه ضحية البطالة أكثر من الرجل ولمدة أطول، رغم كفاءتها المهنية والعلمية. ومن الصعب على المرأة الوصول إلى المراكز العليا في الهرم المهني رغم ما تتمتع به من قدرات عالية موازية وربما أكبر من قدرات الرجل.

تلك هي بعض معطيات تقرير فحسب، لفترة محدودة وبيئات معينة. فماذا لو تابعنا « الأرقام » على مدى عشرات السنين، وفي عالم الغرب على امتداده، بل فيما وراء عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه؟

ألا يكفي هذا للردِّ على تُرَّهَات القائلين والقائلات في ديارنا الإسلامية ، بضرورة « تحرير المرأة » أسوةً بما حدث في الغرب؟

أي تحرير هذا ونحن نجد أمامنا تمامًا واحدة من أبشع حالات استعباد المرأة، والتجارة بجسدها، وتحويلها إلى سلعة رخيصة معروضة للبيع والشراء؟

وأين هذا كله من « المكانة » التي وضع فيها الإسلام

- بكتابه وسنة نبيه ﷺ وشبكته التشريعية - المرأة المسلمة.. سيدة في هذا العالم.. تتربَّع قمة مجتمع يجعل من المرأة، ابنة وزوجة وأمًّا، كائنًا متميزًا يحظى بأقصى درجات التقدير والاعتزاز والاحترام؟

* * *
* *
*

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةِ لِلْمُؤَلِّف

أ. د. عماد الدين خليل.

- ولد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل في الموصل عام (١٩٤١م).

- حصل على شهادة البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام (١٩٦٢م).

- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدًّا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام (١٩٦٥م)، عن رسالته الموسومة (عماد الدين زنكي: ٤٨٧ - ٥٤١هـ/ ١٠٩٤ - ١١٤٦م).

- حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م)، عن أطروحته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام: ٤٦٥ - ٨١٣هـ/ ١٠٧٢ - ١٤١٠م).

- عمل مشرفًا على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام (١٩٦٧م)، وكذلك عمل معيدًا، فمدرسًا، فأستاذًا مساعدًا، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام (١٩٦٧ - ١٩٧٧م).

- وأيضًا عمل باحثًا علميًّا ومديرًا لقسم التراث، ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري في (المؤسسة العامة للآثار والتراث، المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل، للأعوام ١٩٧٧ - ١٩٨٧م).

- حصل على الأستاذية عام (١٩٨٩م)، وعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية الآداب/ جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام (١٩٨٧ - ١٩٩٢م)، ثم في كلية التربية/ جامعة الموصل (١٩٩٢ - ٢٠٠٠م)، فكلية الآداب/ جامعة الموصل حيث لا يزال يعمل هناك.

- شارك الأستاذ الدكتور في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية داخل العراق وخارجه في الوطن العربي وأوربا، وكذلك شارك في إنجاز

عدد من الأعمال العلمية لبعض المؤسسات العربية والإسلامية، وحاضر في الجامعات والمؤسسات العربية والإسلامية والعالمية، وشارك في صياغة مناهج التاريخ لعدد من الجامعات العربية والإسلامية، وله مشاركة أيضًا في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة، وقد أنجز العديد من المواد العلمية في التاريخ والحضارة والفكر والأدب للموسوعات العربية والإسلامية.

- أشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي، وكُتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية.

- وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والأندونيسية.

- أما بحوثه فقد نُشر العشرات منها في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية المحكمة.

- وأيضًا نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسةً وتنظيرًا ونقدًا وإبداعًا) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.

- وقد قُيِّم كتابه (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قِبل مؤسسة أرامكس ميديا واحدًا من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

- وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واختير عضوًا في مجلس جامعة صلاح الدين في أربيل العراق للأعوام (١٩٨٩ - ١٩٩١م)، ومجلس جامعة الموصل للأعوام (٢٠٠٣ - ٢٠٠٥م) ممثلًا عن التدريسيين.

كتب للمؤلف:

أ - الأعمال التاريخية:

١ - ابن خلدون إسلاميًا، (ط٢)، المكتب الإسلامي.

٢ - الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٣ - تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام، (ط١)، دار الثقافة.

٤ - التفسير الإسلامي للتاريخ، (ط ٥)، دار العلم للملايين - بيروت.

٥ - حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي، (ط١)، دار النفائس - بيروت.

٦ - الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في أفريقيا، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

٧ - حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، (ط١)، دار الثقافة - الدوحة.

٨ - دراسات تاريخية، (ط١)، المكتب الإسلامي.

٩ - دراسة في السيرة، (ط١٧)، مؤسسة الرسالة - دار النفائس.

١٠ - دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)، (ط١)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - عمان.

١١ - عماد الدين زنكي، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٢ - في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل، (ط١)، المكتب الإسلامي - بيروت.

١٣ - مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، (ط١)، الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا.

١٤ - المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات، (ط١)، دار الثقافة.

١٥ - المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل، ط١، مكتبة المعارف - الرياض.

١٦ - ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، (ط٨)، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٧ - المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، (ط١)، دار القلم - بيروت.

١٨ - نور الدين محمود: الرجل والتجربة، (ط٢)، دار القلم - دمشق.

١٩ - الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، (ط١)، دار الفكر - دمشق.

ب - الأعمال الفكرية:

١ - الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢ - أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٣ – آفاق قرآنية، (ط٢)، دار العلم للملايين.

٤ – تهافت العلمانية، (ط٥)، مؤسسة الرسالة.

٥ – حوار في المعمار الكوني، (ط١)، دار الثقافة.

٦ – حول إعادة تشكيل العقل المسلم، (ط٥)، كتاب الأمة – الدوحة.

٧ – رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، (ط١)، كتاب الأمة – الدوحة.

٨ – الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي، (ط١)، منشورات فلسطين المسلمة – لندن.

٩ – العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم)، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

١٠ – في الرؤية الإسلامية، (ط١)، دار الثقافة.

١١ – قالوا في الإسلام، (ط١)، الندوة العالمية – الرياض.

١٢ – القرآن الكريم من منظور غربي، (ط١)، دار الفرقان – عمان.

١٣ – كتابات إسلامية، (ط١)، المكتب الإسلامي – مكتبة الحرمين.

١٤ – كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس)، (ط٢)، دار العلوم – الرياض.

١٥ – لعبة اليمين واليسار، (ط٥)، مؤسسة الرسالة.

١٦ – مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٧ – متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، (ط١)، دار الحكمة – لندن.

١٨ – مدخل إلى إسلامية المعرفة، (ط٣)، المعهد العالمي – فيرجينيا.

١٩ – مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢٠ – المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، (ط١)، دار الفرقان.

٢١ – مع القرآن في عالمه الرحيب، (ط٣)، دار العلم للملايين.

٢٢ – مقال في العدل الاجتماعي، (ط٤)، مؤسسة الرسالة.

جـ - الأعمال الأدبية:

١ - ابتهالات في زمن الغربة (شعر)، (ط١)، دار الوفاء - المنصورة.

٢ - الإعصار والمئذنة (رواية)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٣ - جداول الحب واليقين (شعر)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٤ - خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٥ - الرحيل إلى إسطنبول (من أدب الرحلات)، (ط١)، دار حضرموت.

٦ - ريبورتاج (حوار في الهموم الإسلامية)، (ط١)، دار الحكمة.

٧ - الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول)، (ط٢)، دار الاعتصام - القاهرة.

٨ - الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة)، (ط٣)، مؤسسة الرسالة.

٩ - العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)، (ط١)، دار المنارة - جدة.

١٠ - الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي (نقد)، (ط١)، دار الضياء - عمان.

١١ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

١٢ - في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)، (ط٤)، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٣ - في النقد التطبيقي (نقد)، (ط١)، دار البشير - عمان.

١٤ - كلمة اللّـه (قصص)، (ط١)، دار حضرموت - المكلا.

١٥ - المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول)، (ط٢)، دار الإرشاد - بيروت.

١٦ - الفن والعقيدة (دراسة)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٧ - متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٨ - محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

١٩ - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة)، (ط٢)، مؤسسة الرسالة.

٢٠ - معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

٢١ - المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)، (ط١)، مؤسسة الرسالة.

* * *
* *
*

الكِتَابُ في سُطُورٍ

في زمن السرعة والاختزال والتركيز، يتحتّم على المفكر المسلم، إلى جانب أبحاثه المنهجية الشاملة، أن يطرح رُؤَاه، ومواقفه، وأحكامه، وتحليلاته، عبر صيرورة الحياة المتدفقة، مركزة، مختزلة، بمقالات، أو - ربما - بكلمات قصار.

ولم لا؟ إذا كان القارئ المعاصر بأمسّ الحاجة إلى معطيات تتدفق بهذا الاتجاه، فلم لا نمنحه بعض ما يريده ويقدر عليه، وسط زحمة الحياة، وصخبها، وركضها، وعنائها؟

أغلب الظن أن عصر (المقالات) الطويلة، المتشابهة، البطيئة، المحمّلة بالإطناب والمحسّنات اللفظية، والمرهقة بعبء كلمات، وعبارات وجمل، لا قيمة لها إلّا أن تمنح المقال مزيدًا من التزيّن والتبهرج.. أغلب الظن أن عصرًا كهذا قد انتهى، وأننا إذا ندلف إلى عصر جديد يتحتم أن نعيد النظر في هذا الفن التعبيري فنجعله أكثر انسجامًا مع روح العصر ونفسه ومتطلباته...

From an Islamic view

by Professor 'Imad ed-Din Khalil | Articles

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢+)





